جامعة الشهيد حمه لخضر– الوادي

معهد العلوم الإسلامية

قسم أصول الدين

محاضرات السداسي الثالث في مادة العقيدة الإسلامية

السنة الثانية أصول الدين

إعداد: د. زهير بن كتفي

المحور الأول:

الإلهيات في الوحي وعلم الكلام والفلسفة

مقدمة:

يقصد بـ"الإلهيات" عموماً في إطار دراسة العقيدة الإسلامية جانبين: جانب الوجود الإلهي والأدلة المستخدمة في إثبات وجوده عزّ وجلّ. وجانب الصفات الإلهية وعلاقة هذه الصفات بالذات الإلهية العلية في إطار التوحيد، أي توحيد الله تعالى. وتأتي دراسة الإلهيات هنا في بعض جوانبها كما تناولها الوحي الكريم من جانب وكما اشتغل عليها المتكلمون من جانب آخر وكما عرضها الفلاسفة الإسلاميون من جانب ثالث. وهي من هذا المنطلق تهدف إلى تعميق معارف الطالب في دراسته للعقيدة الإسلامية.

سمات منهج القرآن الكريم في بيان العقيدة الإسلامية

إن محاولة بيان سواء الإلهيات في القرآن الكريم؛ بمعنى وجود الله تعالى والأدلة عليه، والتوحيد والصفات الإلهية، أو تناول النبوات، لا بد أن يسبقه في سياق تمهيدي منهجي الحديث عن طريق القرآن الكريم في عرض العقيدة الإسلامية عموماً. ليس فقط من أجل بيان طريقة تناول القرآن الكريم لمسائل العقيدة مقارنة بعمل المتكلمين والفلاسفة، وإنما أيضاً من أجل إجمال التصور العام عن الرؤية القرآنية في عرضها لقضايا العقيدة الإسلامية. ومن هذا المنطلق سيدور الحديث في هذه المحاضرة إن شاء الله تعالى على المنهج القرآني في بيان العقيدة الإسلامية وهذا من خلال ثلاث جزئيات أساسية وهي: التطرق إلى تنوع أساليب القرآن الكريم ومجالاته في عرضه للإلهيات بنوع من العموم، ثمَّ عرض خصائص المنهج القرآني، ثمَّ آثار المنهج القرآني سواء في مجال السلوك الفردي أو البناء الجماعي والحضاري للأمة.

1- من أساليب القرآن الكريم في تقرير العقيدة:

تعددت وتنوعت أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الإيمان وفي تقرير مسائل العقيدة بحيث أننا نجدها تتميز عن أساليب وطرائق المتكلمين والفلاسفة الإسلاميين في تناولهم لمسائل العقيدة. ولعلّ من أبرز هذه الأساليب و هي كثيرة في القرآن الكريم ما يأتي:

أ- السهولة والوضوح والحيوية والإقناع: يعرض القرآن الكريم للكثير من القضايا العقدية بطريقة سهله وواضحة وبعيدة عن المقدمات المعقدة والمشكلة والجافة والجامدة، وبأسلوب مقنع يمكن أن تفهمه الخاصة والعامة كل بقدر طاقته، وفي أوجز لفظ وأجزله وأبينه وأعذبه وأحسنه وأدلّه على المراد وذلك في مثل تناوله مما حاج به عباده من إقامة التوحيد وإثبات الصفات وإبطال الشرك وقطع أسبابه وإثبات النبوة والمعاد والحشر وإثبات قدرته ومشيئته وأنه لا يستحق العبادة سواه سبحانه وتعالى. فنصوص العقيدة جاءت في القرآن الكريم مفهومة، سهلة المأخذ، قريبة المعنى.

ب- الإحالة على الفطرة: فالقرآن الكريم، وهو يدعو إلى الإيمان والعقيدة في الله تعالى، يخاطب فيما يخاطب فطرة الإنسان وما ذلك إلا لأن العقيدة في الله تعالى هي عقيدة فطرية لو تُرك الإنسان وشأنه لما اهتدى إلا إليها، ولما آمن إلا بها، قال تعالى : ((**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**)) [الروم:30].

ولما كانت العقيدة الإسلامية متجاوبة مع الفطرة الإنسانية السليمة، فقد توجه القرآن الكريم في خطابه إلى هذه الفطرة واعتبرها من أقوى الدلالات على المعرفة الإلهية التوحيدية. وقد عرض القرآن الكريم في هذا الإطار الكثير من الوقائع الإنسانية والحياتية والكونية مُذكّراً الإنسان بهذه الفطرة من ذلك حالة لجوء الإنسان إلى الله تعالى حال الكرب والشدة سواء كان مؤمناً أو كافراً، قال تعالى:((**وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**)) [الزمر:8]. وقال جلّ وتعالى: ((**وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**))[يونس:12].

ولكن الإنسان قد ينسى ويغفل عن هذه الفطرة السليمة ولا يستطيع تصورها لأسباب عديدة فيكون بحاجة إلى من يلفت نظره إليها ويذكره بها؛ فبعث الله تعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزل معهم الكتاب للتذكير بتلك الفطرة وما هو معلوم لها وتقويته وليعود الإنسان إلى معرفة ربه وخالقه من جديد. فلو لم يكن الإقرار بالله تعالى فطريا لما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه مذكِّر والقرآن الكريم بأنه تذكرة وذكرى، قال تعالى: ((**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**)) [الغاشية:21-22]، وقال عزّ وجلّ:((**كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ**))[المدثر: 54].

فهذه الطريقة أو الأسلوب الذي يستند إلى الفطرة ويعتمد عليها ويجعلها مرشدا إلى إدراك الحقائق دون عناء وتعقيد يمكن القول هو أسلوب قرآني بامتياز.

ج- مخاطبة العقل والعاطفة: وكما أحال القرآن الكريم إلى الفطرة وجعلها أسلوباً ووسيلة من وسائل تقرير مسائل العقيدة، فقد خاطب العقل والمنطق السليم والعاطفة أيضاً واعتبرهما أسلوباً وطريقة من طرق تقرير مسائل العقيدة، ذلك أنه لا يوجد لدى العقل والمنطق السليم ما يأبى هذه العقيدة ويرفضها، بل إن القرآن الكريم قد أعظم من شأن العقل ودعا إلى التفكر والتأمل في المخلوقات ونبهه إلى أنها بطبيعتها وهيئتها تحيل وترشد وتدعو إلى الإيمان، قال عزّ وجلّ : ((**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**))[النحل:10].

فالقرآن الكريم يخاطب عقل الإنسان ويقدم له الدليل في لغة حية جذابة في الكثير من الآيات الكريمات كقوله تعالى : ((نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ

نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ)) [الواقعة:57-74]، فهذا الأسلوب يتصف بالمنطقية والحيوية والسهولة والوضوح لما فيه من الأسئلة وتعدد الأمثلة المأخوذة من حياة الإنسان التي لاشك أنها تثير عقل المخاطب بها، كما يقدم له في الآن نفسه الإجابة عنها إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة من دعوته إلى الإيمان. صحيح أن بعض العقائد التي قررها القرآن الكريم لا يستطيع العقل أن يستدل عليها لأنها من الأمور التي تقع وراء هذا العالم المادي إلا أنها مرتبطة بالإيمان بالله تعالى الذي أقيم عليه براهين عقلية، فمآلها إلى أن تكون أدلتها عقلية. وقد خاطب القرآن الكريم العاطفة أيضا في آيات أخرى كثيرة منا ما ورد في السورة نفسها التي استشهدنا بجملة من لآيات منها في مخاطبة العقل، فيمكن أن تضع يدك على قلبك وتقرأ قوله عزّ وجلّ: ((فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ))[الواقعة: 83-96] .

و من خلال هذه النماذج الثلاثة التي ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر، نجد أن طريقة وأسلوب القرآن الكريم في تقرير مسائل العقيدة جاري على التسهيل والوضوح والحيوية وقلة المقدمات والقرب من المخاطب عن طريق مخاطبة فطرته وعقله وعاطفته.

2- من خصائص المنهج القرآني في تقرير العقيدة:

مما لا ريب فيه أن المنهج القرآني في عرض العقيدة هو منهج لا يبارى وهذه حقيقة ناصعة لا يجادل فيها إلا مكابر وسنكتفي هنا بعرض بعض الخصائص العامة لهذا المنهج حتى نعطي صورة عن المعالم الخصائص العامة لهذا المنهج القرآني في تقريره لقضايا العقيدة الإسلامية:

أ- الخاصية العملية: إن من أهم الخصائص الأساسية لهذا المنهج هو الجانب العملي فيه، أي أن المنهج القرآني في عرض العقيدة هو منهج عملي بامتياز، ذلك أن العقيدة الإسلامية جاءت متناسقة ومتساوقة مع واقع الإنسان وقدراته العقلية والروحية والنفسية ووظيفته التي كُلِّف بها وغاياته في تحقيق عبوديته لله عزّ وجل. فليس في القرآن الكريم ما يذهب بالإنسان بعيداً عن ميدان التكليف؛ صحيح أن القرآن الكريم تحدث عن عالم الغيب الذي قد يبدو بعيدا عن هذا الميدان، ولكن لم يذكره إطلاقاً بشكل فلسفي نظري بل تحدث عنه بالمقدار الذي يثمر في حياة الإنسان السلوك الصحيح الحسن والعمل الصالح. وهذا ما سنراه في المحاضرات اللاحقة إن شاء الله تعالى.

ب- خاصية العموم: من خصائص المنهج القرآني أنه منهج عام يتناسب مع جميع المكلفين، فالعقيدة الإسلامية كما تستطيع أن تقدمها للطفل الصغير تستطيع أن تقدمها للفيلسوف الكبير لأنها جاءت لهم جميعاً على اختلاف مستوياتهم الفكرية والاجتماعية وغيرها، قال تعالى: ((**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**))[الفرقان:1].

ج- خاصية الشمول: من خصائص المنهج القرآني الشمولية، حيث أن القرآن الكريم لم يترك زاوية من زوايا الاعتقاد الذي يحتاجه الإنسان إلا ووضّحه، وما ترك أصلاً من أصول العقيدة ومسائلها المهمّة إلا وبيَّنه. وما جاء في السنة النبوية الشريفة من مسائل العقيدة لا يعدو إلا أن يكون تأكيداً لما جاء في القرآن الكريم وتوسيعاً لبعض المعاني التي جاءت فيه.

د- خاصية الترابط: ومن خصائص المنهج القرآني أنه يربط العقيدة بغيرها من جوانب الدين الأخرى من عبادة وأخلاق وجهاد وحكم وسياسة واقتصاد وأحوال شخصية وعقوبات وحدود وغيرها؛ ذلك أن العقيدة الإسلامية هي عقيدة هادفة لها غاية وغايتها سعادة الإنسان في الدارين بالتزامه بأمر الله تعالى واستخلافه في أرضه، فكل هذه الجوانب ربطت بالعقيدة ربطا وثيقاً، بل كثير منها اقترن بأصول الدين كلها كالإلهيات والنبوات واليوم الآخر.

3- آثار المنهج القرآني في الواقع:

أ- انقلاب هائل في النفس الإنسانية: إن من بين أهم هذه الآثار للمنهج القرآني في الواقع البشري هو هذا الانقلاب الكبير الذي أحدثه في النفس البشرية في مجال السلوك الفردي، فنجد هذا الإنسان المطبوع على حب الدنيا والأنانية وحب الذات والطمع والسلامة والخلود يبذل كل شيء، كل ما عنده لأخيه ويبذل روحه لدينه، بل لقد ارتفع هذا البذل والعطاء من واجب تكليفي إلى مرتبة المحبّة، فأصبح هذا الإنسان المسلم يحب أن يبذل كل شيء في سبيل الله تعالى، قال تعالى: (﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾) [الحشر:9]. فهذا الانقلاب الهائل يُعزى أول ما يعزى إلى العقيدة الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم والتي غيّر فيها التصورات والمفاهيم وأثّرت على السلوك اليومي للفرد المسلم في أكله وشربه وعمله ومزرعته وسوقه في أسرته ومع الآخرين. لقد بنت العقيدة الإسلامية إنساناً جديدا لا يحتاج إلى رقابة فرقيبه من داخله ولا يحتاج إلى القضاة فدستوره بين جوانحه. وقد ظهر جليا في جيل النبوة الأول.

ب- تفجير الطاقات البشرية في البناء الحضاري: فإذا عرفنا كيف أحدثت عقيدة القرآن الكريم ذلك الانقلاب الهائل في حياة الفرد وسلوكه فما المانع من أن تحدث انقلابا في المجتمع كله ؟ ذلك ما حصل فعلاً على أرض الواقع وما كتبه وسجله التاريخ من أن أفرادا صاغتهم عقيدة القرآن الكريم استطاعوا أن يبنوا حضارة لا مثيل لها. لأن هذه العقيدة التي تبصّر الإنسان بحقيقة هذا الكون، وأنه مخلوق مسخّر له وهو سيده والمتصرف فيه بإذن خالقه لا بد أنها ستفجر الطاقات وتفتق المواهب، ثم إن هذا التفجير منضبط بحدود الدستور الإلهي. فالإنسان ليس هو المالك الحقيقي وإنما هو مستخلف فيه وسيأتي يوم يحاسب عليه، قال جلّ وتعالى: ﴿﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**﴾﴾ [لقمان:20].

ج- حفظ وحدة الأمة الإسلامية: ولما كان مصدر التلقي واحداً ولم يأخذ المسلمون العقيدة إلا من كتاب الله تعالى فقد حفظت عليهم وحدتهم وصانت حياتهم من الاختلاف وكانت صمام الأمان الذي حفظ لهذه الأمة وجودها.

وبهذا نصل إلى أن غاية المنهج القرآني في العقيدة هو إثبات أن الدين كله لله تعالى ببناء التصورات الأولى السليمة، وإقامة خلافة الله تعالى في الأرض بالدفع باتجاه العمل والتطبيق، وتحقيق الرحمة للعالمين والصبر على ذلك.

سمات منهج المتكلمين في بيان العقيدة

مقدمة:

بعد أن تعرضنا في المحاضرة السابقة إلى السمات العامة لمنهج القرآن الكريم في عرض وتناول قضايا العقيدة، فإننا سنتطرق في هذه المحاضرة إلى محاولة بيان السمات العامة لمنهج المتكلمين في العقيدة من أجل محاولة التعرف على أهم خصائص منهج هذا العلم في جعل موضوع بحثه العقيدة، والذي قام بدور كبير في الدفاع عن العقيدة الإسلامية والانتصار لها ضد الشبهات التي يصطنعها المخالفون للملة الإسلامية من أصحاب الملل والنحل والأديان الأخرى. ولما كان علماً يُعنى بمعرفة الله تعالى ومعرفة ما يجب له وما يستحيل عليه وما يجوز له، وسائر ما هو من أركان الإيمان الستة وما يلحق بها كان من أشرف العلوم. ونحن إذ نتناول منهج المتكلمين هنا في عرض العقيدة لا لنقف على مدى التطابق مع المنهج القرآني، وهو الذي انطلق من القرآن الكريم والسنة النبوية للدفاع عن العقيدة والحجاج عنها والانتصار لها. وفي هذه المحاضرة سنتناول جزئيات منها: تعريف علم الكلام ومن هو المتكلم، وأسباب نشأته، والمنهج الكلامي في الاستدلال على قضايا العقيدة وخصائص المنهج الكلامي عموماً. ومن هنا تكتسب هذ المحاضرة أهمية بالغة لأنها تعطي لنا جملة من المعالم الأساسية وعلى رأسها المعالم الظرفية والتاريخية والمنهجية لعلم جعل موضوعه الأساسي العقيدة وحمل على عاتقه الدفاع عنها والانتصار لها والرد عل شبه المخالفين لها من أصحاب الملل والنحل والديانات الأخرى.

1- تعريف علم الكلام والمتكلم:

أ- علم الكلام:

عرّفه عضد الدين الإيجي رحمه الله تعالى(ت756هـ) بقوله هو:" علم يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه". وقد نبّه إلى أن المقصود بـ"العقائد" نفس الاعتقاد دون العمل، وبـ"الدينية" العقائد المنسوبة إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم، بقطع النظر عن إصابة المتكلم في فهمها والتعبير عنها أو عدم إصابته.

وبناء على ذلك فهو علم منهجي: أي أنه يشتغل بأدلة إثبات قضايا العقيدة كما يشتغل بأدلة النفي التي تدفع شبه الخصوم. وعلم ديني: لأن المقصود بالدين هو الإسلام المنقول عن الرسول

صلى الله عليه وسلم. وعلم عقدي: بمعنى لا يشتغل بإثبات جميع الحقائق الدينية، وإنما يختص بإثبات العقيدة التي يقصد بها نفس الاعتقاد لا العمل.

– ويمكن القول عموماً هو العلم الذي يُبحث فيه عن الأحكام الاعتقادية التي تتعلق بالإلهيات أو النبوات أو السمعيات من أجل البرهنة عليها ودفع الشبه عنها.

ب– المتكلـــم:

هو الذي يبدأ بالتسليم بقواعد الإيمان كما وردت في التنزيل، أي في القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم يأخذ في التدليل على صحتها بالعقل، وتفنيد الشبه التي تحوم حولها. وبناء عليه فالمتكلم هو من قام بالشروط الآتية بأن كان:

– **معتقدا** : يقوم اعتقاده على التسليم بما ورد في كتاب الله تعالى والسنة المحمدية تسليم المكلَّف من لدن الشرع، ولهذا الاعتبار سمي علم الكلام بـ"علم التوحيد".

– **ناظراً:** لما كان النظر هو طلب الفكر لشيء مخصوص سالكاً إليه طرقاً مخصوصة يعتقد أنها قادرة على الظفر به، فإن المتكلم يطلب أصول العقيدة بالنظر والاستدلال العقلي، وذلك بأن يسلك فيها سبل الاستدلال والإقناع مما أدى إلى تسمية علم الكلام بـ"علم النظر والاستدلال".

– **محاوراً:** مقتضى المحاورة أنه لا خطاب إلا بين اثنين، لكل منهما مقامان هما مقام المخاطِب ومقام المخاطَب ووظيفتان هما وظيفة العارض ووظيفة المعترِض. وقد كانت هذه الصفة الحوارية للمتكلم داعياً إلى حمل الكلام على معنى "المكالمة" و"المناظرة" إلى تسمية علم الكلام بعلم "المقالات الإسلامية".

2– أسباب نشأة علم الكلام:

يلاحظ أن علم الكلام نشأ لأسباب عدة داخلية وخارجية:

أ– الأسباب الداخلية:

– تعرُض القرآن الكريم نفسه في دعوته إلى الإيمان والتوحيد للملل والنحل والديانات الأخرى بالرد عليهم وتفنيد معتقداتهم التي كانت منتشرة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فكان طبيعياً أن ينهج علماء المسلمين من المتكلمين نهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين لعقيدة الإسلام.

-كان المسلمون في العصر الأول في إيمان كامل وخالص من الجدل ولما اتسعت دائرة الفتح الإسلامي ومال المسلمون نوعاً ما إلى الاستقرار وظهرت حلقات التعليم والبحث في شتى المسائل الدينية ولم يكن حينئذ بد من الخوض في المتشابهات وغوامض النصوص، فاستتبع هذا اختلاف وجهات نظرهم فنشأت الآراء والمذاهب الكلامية.

- خلافهم في المسائل السياسية كان سببا في ظهور الخلاف في بعض المسائل العقدية.

ب- الأسباب الخارجية:

- دخول الكثير من أصحاب الديانات الأخرى إلى الإسلام كاليهود والنصارى والمانويين والزردشتيين والصابئة والبراهمة..إلخ. وكان في هؤلاء علماء دين، فلما ركنوا إلى الإسلام ودرسوا أحكامه وفهموا تعاليمه أخذوا يفكرون في تعاليم أديانهم القديمة ويقارنوا بينها وبين الإسلام بحكم الضرورة والطبيعة النفسية. بل يمكن القول أن منهم من كان لا يزال مفتونا بدينه، فيحاول أن يكسوه بلباس الإسلام، وهذا ما يدفع أي مسلم غيور على دينه أن يدافع عنه بالمناقشة والجدل وبالأسلوب الذي يفقهه هؤلاء، وهذا ما فعله أكثر المتكلمين وعلى رأسهم المعتزلة في دفاعهم عن العقيدة الإسلامية.

- انتشار الزندقة وظهور من يتاجرون بالشبهات والصناعة الجدلية وأساليب الحجاج للتشويش على عقيدة المسلمين، فأدى هذا إلى ظهور علم الكلام الذي تسلّح بنفس السلاح الجدلي والأسلوب الحِجَاجِي للرد عليهم والانتصار للعقيدة الإسلامية.

ملاحظة: لقد تناول المتكلمون في بحثهم في مسائل العقيدة أمرين أساسيين هما: الإلهيات والطبيعيات. ففي الإلهيات بحثوا في صفات الباري عزّ وجلّ: علمه وإرادته وقدرته والقضاء والقدر ..إلخ. وهذه المباحث سُميت بـ"جليل الكلام". ثم أن علم الكلام تطور فبحث في أشياء العالم كلها لعلاقتها مع مسائل العقيدة كـ: المادة وصفاتها وتحولاتها والحركة والسكون والمكان والزمان والوجود والعدم وغير ذلك من الصفات الطبيعية الظاهرية، فخرجوا برؤية شاملة قامت على جملة من المبادئ والأسس العقلية. وقد سُميت هذه المباحث الطبيعية بـ"دقيق الكلام".

3- منهج المتكلمين في الاستدلال على العقائد:

منهج الاستدلال هو الطريقة العامة أو مجموعة الأسس والقواعد الكلية التي ارتضاها الباحثون نظرياً واعتمدوها تطبيقياً في إثبات مسائل العقيدة وفي مجال الدفاع عنها أمام الشبهات والخصوم.

ولما كان لهذا العلم مزيدا من الاتصال- بحكم طبيعته وموضوع بحثه وظروف نشأته - بالدراسات العقلية والفلسفية، وقد خاض رجاله حرباً مستمرة ضد الاتجاهات الفكرية والعقائدية المخالفة لعقيدة الإسلام، واحتكوا بأبناء الملل والثقافات الأخرى في مختلف العصور، فكان من الطبيعي أن ينعكس أثر ذلك عل مناهجهم وأساليبهم سواء بالرفض والمقاومة أو التبني والاقتراض.

لقد بدأت البحوث الكلامية معتمدة على العقل والنقل معاً، إلا أن المدارس الكلامية في الجملة تتراوح بين قطبي الاستدلال العقلي والاستدلال النقلي وتتفاوت في مدى الاعتماد على كل منهما معاً حسب طبيعة كل مدرسة وظروف تطورها.

أ- منهج الاستدلال العقلي:

- يقرر أكثر المتكلمين من متقدمين ومتأخرين، وخاصة المعتزلة والماتريدية والأشاعرة، رحمهم الله تعالى جميعاً، أن الاستدلال العقلي مقبول في مسائل العقيدة إلى جانب الاستدلال النقلي، وأن المعارف الاعتقادية تستمد من النقل والعقل معاً. وقد بالغ البعض منهم في الاعتماد على الاستدلال العقلي والتهوين من قيمة الاستدلال النقلي أو تحديد مجاله في المباحث الكلامية كما هو الشأن لدى أكثر المعتزلة.

- حيث لم يكتف المعتزلة بالاعتداد بالدليل العقلي والاعتراف بصحة ما يدل عليه في المسائل الاعتقادية، بل يرون وجوب النظر والاستدلال العقلي على معرفة الله تعالى وعدم الاكتفاء بالتقليد. وقد استدلوا على ذلك بجملة من النصوص القرآنية كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[يونس:101]، وقوله عزّ وجلّ:﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[آل عمران:190].

ويمكن القول إجمالاً أن قبول الاستدلال العقلي في المسائل العقدية كان سمة للمدارس الكلامية جميعاً. لكن النزعة العقلية تغلبت على المعتزلة، فكان نصيب اعتمادهم على صحيح المنقول من جراء ذلك ضئيلاً جداً.

ب– منهج الاستدلال النقلي:

– سلك الأشاعرة في الاستدلال على العقائد مسلك النقل أولاً والعقل ثانياً. فالإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى(ت 330هـ) يثبت ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية من أوصاف الله تعالى ورسله واليوم الآخر والملائكة والحساب والعقاب والثواب. ويتجه إلى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية يستدل بها على صدق ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية عقلاً، بعد أن وجب التصديق بها كما هي نقلاً. فهو لا يتخذ العقل حاكماً على النصوص ليؤوّلها أو يمضي ظاهرها، بل يتخذ العقل خادماً لظواهر النصوص يؤيدها.

– وقد برع الإمام الأشعري في الاستدلال العقلي وارتضاه مسلكاً إذا جاء خاضعاً لسلطان النصوص الثابتة وسبب ذلك: أنه تخرج على المعتزلة وقد سار نصف عمره على طريقتهم في الاستدلال. كما أنه تصدى بعد ذلك للرد على المعتزلة وكشف انحرافاتهم فلا بد أن يتبع طريقتهم في الاستدلال ليقطع شبهاتهم وليرد حجتهم عليهم. إضافة لتصديه للرد على الفلاسفة وغيرهم ممن لم يكن يسكته ويفحمه إلا الاستدلال العقلي المنطقي.

4– من خصائص المنهج الكلامي:

يمكن القول عموماً إن بعض هذه الخصائص التي سنأتي على ذكرها تتفاوت في مدى ظهورها بين المدارس الكلامية، من منطلق مدى اعتماد هذه المدارس الكلامية على النصوص النقلية من قرآن كريم وسنة نبوية أو تغليب العقل عليها.

أ– التأكيد على الجوانب النظرية على حساب الجوانب العملية: ففي الإلهيات مثلاً: نجد الكثير من كلامهم عن الصفات الخبرية والقضاء والقدر، جاء كلاماً نظرياً بحتاً، حيث لا علاقة له بميادين التكليف والعمل، فهمشوا الكلام عن مفهوم إفراد الله تعالى بالطاعة والعبودية والخضوع والخشوع، ولم ينظروا إلى أسماء الله تعالى وصفاته من زاوية أثرها في تربية الروح وتزكية النفس. كما أنهم مثلاً في كلامهم عن اليوم الآخر اهتموا بطرح أسئلة لا يترتب عليها عمل من مثل: هل عذاب القبر على الروح أم على الجسد ؟ وهل الميزان هو حقيقة أم مجازاً ؟..إلخ. ولكن هذا لا يؤدي إلى

القول أن المتكلمين أهملوا تماماً الجانب العملي في كلامهم، فهذا الأمر مخالف للحقيقة، نعم لقد اهتم المتكلمون بالجانب العملي لقضايا العقيدة ولكنهم غلبوا الجانب النظري عليها.

ب- قصر المباحث العقائدية على صنف معين من الناس: بمعنى أن صيغة عرض المسائل الاعتقادية في علم الكلام لم يكن في متناول جميع الناس، بل جاء مقصوراً على طائفة خاصة من الناس، وهذا عكس المنهج القرآني الذي رأينا أن سمته مخاطبة الأمة جميعاً.

ج- التضخيم والزيادة: بمعنى أن هناك بعض القضايا العقدية لها أصل في الوحي الكريم ولكن تم إعطاؤها مساحة واسعة على خارطة العقيدة الإسلامية حتى كادت تنفرد بالعقيدة جملة وتفصيلاً كالتوسع الذي حصل في قوله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:11]، والذي أدى ببعض المتكلمين إلى تعطيل صفات الله تعالى التي هي ثابتة بالنصوص الصحيحة. والزيادة كتلك التي تظهر في وجود بعض المسائل التي أدرجها المتكلمون في مباحث العقيدة وهي لا أصل لها في الوحي، كمسألة الموجود وأقسامه، والجواهر والأعراض، وأن أول الواجبات على المكلف النظر والاستدلال، ومعرفة الله تعالى لا تكون إلا بالعقل..إلخ. كما أنهم أضافوا إلى أسمائه تعالى اسم "القديم" و"واجب الوجود". ولعلّ الحاجة والضرورة هي التي ألجأتهم إلى ذلك خاصة في الظروف التاريخية التي أشرنا إلى بعضها سابقا.

د- الفصل بين مسائل العقيدة ومسائل الشريعة: فقد جاءت العقيدة الإسلامية كما تناولها بعض المتكلمين وكأنها ليس لها علاقة بجوانب الشريعة ككل، وقد رأينا كيف أن المنهج القرآني كان منهجاً يقوم على الربط بين العقيدة وجميع جوانب الدين الأخرى، فلا تكاد تجد مسألة تعبدية أو نفسية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية..إلا وهي مرتبطة بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم واليوم الآخر.

هـ- الأسلوب الصعب: الذي يظهر بوضوح في مختلف المدونات والمكتوبات الكلامية والذي هو ليس في متناول عامة الناس جميعاً. ولعلّ الحِجاَج والمناظرات والجدل الذي خاضه المتكلمون ضد أصحاب الاتجاهات الأخرى من الفلاسفة وأصحاب الملل والنحل لأجل إقناعهم والرد عليهم وحراسة العقيدة الإسلامية،كما رأينا هو الذي جعل أسلوبهم صعّباً.

5- من الآثار المترتبة على المنهج الكلامي في الواقع الإسلامي:

إن من بين أهم الآثار التي ترتبت على المنهج الكلامي في الواقع الإسلامي ما يأتي:

أ- الناظر في التاريخ الإسلامي يجد أن المتكلمين استطاعوا حقيقة أن يحققوا نجاحاً كبيراً في حراسة العقيدة الإسلامية وصدّ الغزو الخارجي الذي طالها.

ب- لكنهم في جانب آخر لم يستطيعوا أن يحلوا الكثير من المشاكل والخلافات الداخلية.

ج- كما أنهم بحثوا في بعض المسائل العقدية الفرعية المعقدة ولم يستطيعوا حسمها كما لم يستطع المخالفون لهم حسمها أيضاً؛ فأنتجت خلافاً ونزاعاً يظهر جلياً في كتاب "مقالات الإسلاميين" لأبي الحسن الأشعري و"الفرق بين الفرق" لعبد القاهر البغدادي(ت 429هـ) رحمه الله تعالى.

د- من الآفاق التي فتحها المتكلمون في دراسة العقيدة الإسلامية "أنهم وسعوا دائرة المعارف الإسلامية، حيث درسوا في المباحث الكلامية فلسفات الأمم المجاورة وعلومهم ودرسوا لغاتهم واختلافاتهم وتعرفوا على مقومات حضاراتهم. وقد ربطوا الكثير من العلوم الكونية بعلم الكلام كعلم الفيزياء والفلك، وكمثال على ذلك نجد كتاب "المواقف في علم الكلام" لعضد الدين الإيجي، بحث في الأفلاك وفي الضوء والصوت والصورة والذوق والحركة والصحة والمرض والكيفيات النفسانية والنوم وغير هذا كثير. هذا كله ساعد علم الكلام في استنفار العقل الإسلامي و استخراج طاقاته الكامنة التي حقق بها وثبة حضارية فريدة من نوعها في تاريخ الحضارات الإنسانية".

الإيمـان باللّـه تعـالى في القرآن الكريم

مقدمة:

يعد الإيمان بالله تعالى أساس الإيمان في الإسلام، وهو أهم الأصول الاعتقادية والعملية، وهو أول واجب على الإنسان وعليه يقوم الإيمان ببقية الأركان، إذ لا يصح إيمان أحد بشيء من أمور الإيمان وشعبه إلا بعد الإيمان بوجود الله ووحدانيته. وهو لب القرآن الكريم، إذ القرآن الكريم كله حديث عن الإيمان بالله تعالى؛ حيث يظهر ذلك جلياً في حديث الكتاب العزيز عن الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وفي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونبذ كل ما يعبد من دونه، وفي الأمر بطاعته عزّ وجلّ والنهي عن معصيته، وفي إخباره عن جزاء المؤمنين به عزّ وجلّ وما يلحق بهم من كرامة في الدنيا أو مثوبة في الآخرة، وفي إخباره عمّا فعل بالكافرين به في الدنيا من نكال وما ينتظرهم في الآخرة من وبال وشقاء. فهذا كله تعريف بالله تعالى وإبراز لأهميته الكبيرة في دائرة الإسلام. إننا نستطيع أن نقرر أن الإيمان بالله تعالى بالنسبة لبقية الأركان والفروع كأصل الشجرة بالنسبة للسوق والفروع، فعن معرفة الله تعالى انبثقت المعرفة بمصير هذه الحياة وما تنتهي إليه الحياة البرزخية والأخروية، وكلما كان حظ الإنسان من الإيمان بالله تعالى عظيما كان حظه في الإسلام كبيرا.

ومن هنا تظهر وتكتسب هذه المحاضرة أهمية كبيرة في إطار محاضرات العقيدة الإسلامية.
وسوف نتناول من خلالها ثلاث مسائل مركزية: الأولى: مفهوم الإيمان بالله تعالى، والثانية: هل الإيمان بالله تعالى ضروري أم مكتسب ونظري؟، والثالثة: أهم الأدلة على وجود الله تعالى من القرآن الكريم.

1- مفهوم الإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله عزّ وجلّ معناه الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى ربّ كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه يستحق وحده أن يفرد بالعبادة من صلاة وصوم ودعاء ورجاء وخوف وذل وخضوع، وأنه المتصف بجميع صفات الكمال كلها، المنزه عن جميع صفات النقص.

2- هل الإيمان بالله تعالى ضروري أم نظري ؟

إن الإيمان بوجود الله تعالى كما يقرر ذلك الكتاب العزيز قضية ضرورية بديهية في النفوس لا مساغ للعقل في إنكارها.

– فهي ليست قضية نظرية تحتاج إلى دليل وبرهان ذلك لأن دلالة الأثر على المؤثر مدركة في بداهة العقول، فالعقل لا يمكن أن يتصور أثرا دون مؤثر.

– كما أن البيئة التي نزل فيها القرآن الكريم لم تكن بيئة فلسفية وإنما كانت وثنية في الغالب وكتابية في بعض القرى أو عند بعض الأشخاص، والكتابيون لا ينكرون الخالق عزّ وجلّ والوثنيون كذلك، قال تعالى:((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ)) [لقمان:25]. فالقرآن الكريم لم يرد أن يفتح هذا الموضوع مع الناس.

– بل حتى خارج هذه البيئة لم يعرف هنالك منكر للخالق. يقول الشهرستاني:" وأما تعطيل العالم عن الصانع العليم القدير الحكيم فلست أراها مقالة لأحد ولا أعرف عليها صاحب مقالة إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية(...) ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع بل هو معترف بالصانع(...) فما عدت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان".

3– أدلة وجود الله تعالى من القرآن الكريم:

وبناء عليه فقد جاء القرآن الكريم مؤكداً على وجوده عزّ وجلّ دون ذكر لمناقشة صريحة مع منكري الخالق تعالى ومع ذلك فقد تضمن جملة من الأدلة الكثيرة تتحدث عن وجوده جلّ جلاله جاءت في سياق إثبات مسائل أخرى على رأسها الوحدانية والنبوة والبعث والنشور. ويمكن أن نذكر منها ما يأتي:

أ–دليل الفطرة: الفطرة في اللغة هي الخِلْقَةُ التي يكون عليها الإنسان في أول أمره. ويمكن القول إجمالاً إن المعرفة الفطرية بالله تعالى هي المعرفة الحاصلة في النفس دون سبب خارجي ومطبوعة فيها طبعاً تجعل الإنسان مقراً بربوبية الله تعالى والشعور بالافتقار إليه فيتوجه ويلتفت إليه ويتذكره في جميع حالاته. ويعني دليل الفطرة الذي يدل على وجود الله تعالى"أن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم"، خاصة إذا لم تعمل عوامل معينة على حجب هذا الإحساس والإقرار الإيماني العميق الموجود في خبايا النفس. فلا ينصرف عن مقتضى الفطرة إلا من طرأ على قلبه

ما يصرفه عنها لقول النبي صلى الله عليه وسلم :"**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**".

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الدليل من خلال زوايا عدة منها:

– تبيان معنى الفطرة وذلك في مثل قوله تعالى: ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)) [الروم:30]،وقوله عزّ من قائل: ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ))[الأعراف:172-173]. فالاعتراف بربوبية الله تعالى وحده فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الله تعالى في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها وعلى بحكم وجودها ذاته وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم فيحتاجون للتذكير والتحذير. إن الاعتراف بالله تعالى عهد وميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى. ومن هنا نعلم أن من أنكر وجود الخالق جلّ جلاله من الملحدين إنما أتوا من انحراف فطرتهم ومن تأثير الشياطين عليهم وتلاعبهم بهم.

– إيقاظ وتحريك هذه الحقيقة الكامنة داخل الإنسان من خلال دعوة الإنسان إلى التفكر والنظر في نفسه وفي الكون كما قال تعالى: ((وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ))[الذاريات:20-21]، والتساؤل الإنكاري الذي يعرضه القرآن الكريم على نفس الإنسان هو تساؤل يدفعه أول ما يدفعه لاكتشاف هذه الحقيقة الكبرى في الوجود الإنساني قال عزّ وجلّ: ((أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ))[إبراهيم:10]. ثم الإنذار الشديد إن أعرضوا عن هذه الحقيقة الكبرى كما في قوله تعالى:((فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ))[فصلت:13].

– فإذا أصر الإنسان على عناده فلا بد أنه في لحظة ضعف بشري ينسى عناده لينكشف له الحق في نفسه ومن ثمة الاحتجاج به عليه. قال تعالى: ((وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ))[لقمان:32]، وقال أيضاً: ((وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ))[الإسراء:67]،

فللنفوس الإنسانية مؤمنها وكافرها إحساس فطري عميق بأن لها خالقاً تلجأ إليه عند الإحساس بالخطر والشدائد.

ولقد لخص القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:62].

ب- دليل الخلق: ومفاد هذا الدليل أن الخلق بكل ما فيه شاهد على وجود خالقه العلي القدير، فأول سورة نزلت في القرآن الكريم ذكّرت الإنسان بقضية "الخلق"، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾[العلق: 1-2]، فذكرت الخلق مطلقاً ومقيداً لتذكّر الإنسان في كل أحواله أن هذا الخلق لا بد له من خالق. ثم ذكرت خلق الإنسان من علقة ليكون هو نفسه الدليل الذي يستدل به على خالقه. والقرآن الكريم في تقريره لهذا الدليل يأتي به في بعض الآيات الكريمات في صورة استفهام تقريري وصياغة بليغة مؤثرة تهزّ الوجدان والعقل هزاً كما في هذه الآية الكريمة :﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[الطور: 35-36]. وقد عُني القرآن الكريم بتوجيه العقل الإنساني إلى النظر في آفاق الكون وآياته الكثيرة للدلالة على الخلق، قال جلّ جلاله :﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:163-164].

ج- دليل العناية: يمكن القول إجمالاً أن دليل العناية مبني على أصلين اثنين: الأول: أن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان. والثاني: أن هذه الموافقة ضرورة، وهي من قبل فاعل قاصد مريد لذلك؛ إذ ليس يمكن أن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق. وهذا الفاعل القاصد المريد لذلك هو الله تعالى. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:22].

وكون الموجودات موافقة لوجود الإنسان، فهذا يظهر جلياً باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له، والأرض التي سخرت له، وموافقة كثير من الحيوانات له، والنبات والجماد وأشياء كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار، وتظهر العناية أيضا في أعضاء البدن وأعضاء الحيوان، فكل ذلك موافق لحياة الإنسان ووجوده. فما في هذا الكون من تنظيم دقيق وتناسق عجيب هو مظهر الرعاية والعناية بهذا الإنسان الذي سخر له الله تعالى ما في السماوات والأرض وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان:61]. وقال جلّ وتعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾[النبأ: 6-16].

وهكذا يمكن القول عموماً كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، أن أدلة إثبات وجود الله تعالى كما جاءت في القرآن الكريم لم تأت لهذا الغرض أساساً، وإنما جاءت لإثبات مسائل أخرى في العقيدة على رأسها مسألة التوحيد.

التوحيد في القرآن الكريم

مقدمة: أشرنا في المحاضرة السابقة عند تناولنا لموضوع الإيمان بالله تعالى وأدلة وجوده تعالى، أن أدلة إثبات وجوده عزّ وجلّ كما جاءت في القرآن الكريم لم تأت لهذا الغرض أساساً؛ من منطلق أن الإيمان بوجود الله تعالى كما يقرر ذلك الكتاب العزيز قضية ضرورية بديهية في النفوس لا مساغ للعقل في إنكارها. فمعرفة الله تعالى هي معرفة حاصلة في النفس دون سبب خارجي ومطبوعة فيها طبعاً تجعل الإنسان مقراً بربوبية الله تعالى والشعور بالافتقار إليه فيتوجه ويلتفت إليه ويتذكره في جميع حالاته. وبناء عليه فقد جاءت الأدلة التي ساقها القرآن الكريم في مجال إثبات وجوده بالأحرى وبالأولى لإثبات مسائل عقدية أخرى وعلى رأسها مسألة التوحيد باعتبارها مسألة يدور عليها قطب رحى العقيدة، ونظرًا لأهمية التوحيد في حياة البشر فقد عمّت الدعوة إليه جميع الأمم وأرسل الله به الرسل، وأنزل عليهم الكتب فدعوا الناس إلى التوحيد الخالص وكان هو أول مطلوب من العباد . وما سنتناوله في هذه المحاضرة سيقتصر على أربع جزئيات أساسية هي: مفهوم التوحيد، وعناية القرآن الكريم به، وأدلته من القرآن الكريم، وثمرات التوحيد.

1- تعريف التوحيد:

أ- لغة:

-تقول العرب: واحد وأحد، ووحَد، ووحيد، أي: منفرد، فالله تعالى واحد، أي: منفرد عن الأنداد. والواحد هو المنفرد بالذات في عدم المِثْل والنظير. والواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنّى ولا يقبل الانقسام.

-والتوحيد على وزن "التفعيل"، وهو مصدر وحدّته توحيداً، أي: جعلته واحداً، أي: منفرداً عما يشاركه ويشبهه. ولكن هل يصح في توحيد الله تعالى القول بأن التوحيد هو جعل الله تعالى واحداً ؟ أجاب عن ذلك "السفاريني" (ت 1188هـ) بقوله: "التوحيد تفعيل للنسبة كالتصديق والتكذيب لا للجعل. فمعنى وحدّت الله نسبت إليه الوحدانية لا جعلته واحداً، فإن وحدانية الله تعالى ذاتية له ليست بجعل جاعل".

ب- اصطلاحاً:

- التوحيد هو إفراد الله تعالى بما يختص به من الصفات والأفعال وما يختص به من الحقوق والأعمال على العباد.

– والوحدانية هي عبارة عن نفي التعدد في الذات والصفات والأفعال، فهو سبحانه لا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وبناء عليه فالتوحيد في أصل اللغة والشرع بمعنى الإفراد، أي إفراده سبحانه وتعالى بالخصائص التي تفرّد بها في ذاته وصفاته وأفعاله فلا يشاركه فيها أحد.

2– عناية القرآن الكريم بالتوحيد:

لقد اعتنى القرآن الكريم بالتوحيد عناية كبيرة وتظهر هذه العناية في أمرين أساسيين:

– الأمر الأول: الاهتمام الكبير بمسألة التوحيد: حتى أنك لا تجد سورة من القرآن الكريم تخلو من ذكر التوحيد والتأكيد على وحدانية الله تعالى ومحاربة الشرك. ويمكن أن نلتمس ذلك فيما يأتي:

– وصف المولى عزّ وجلّ نفسه بالوحدانية وما يقربها اشتقاقاً بنحو: 29 آية.

– وصف المولى عزّ وجلّ نفسه بأنه "لا إله إلا هو" وما يقرب من هذا اللفظ بنحو: 176 آية.

– ذكر الله تعالى الشرك وما يقربه اشتقاقاً بنحو 62 آية.

– تناول القرآن الكريم لمسألة التوحيد بألفاظ وصيغ متنوعة هي أضعاف الأرقام أعلاه من أكثرها استعمالا مادة "عبادة"؛ حيث جاء تأكيد القرآن الكريم على حق الله عزّ وجلّ في العبادة وحده.

– ذكر الكتاب العزيز الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيراً وذكر أن وظيفتهم ونقطة البداية في دعوتهم ومركزها هي الدعوة إلى توحيد الله تعالى، قال جلّ و تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25].

– الأمر الثاني: التفصيل الشامل لكل جوانب التوحيد ومسائله: حيث أن القرآن الكريم أبان عن جميع جوانب التوحيد وأقام عليها الدليل، ويمكن أن نحددها في خمسة جوانب مهمّة تضم جميع مسائل التوحيد كما يأتي:

أ– إفراد الله تعالى في الخلق: بمعنى أن الله تعالى وحده هو الذي خلق هذا العالم، خالق الإنسان، خالق السماوات والأرض، خالق الأنعام، خالق الغيث والزرع، خالق النعم جميعاً...إلخ. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾[الزمر:62].

ب– إفراد الله تعالى في الملك: بمعنى أن الله تعالى هو المالك الحقيقي لخلقه، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة:120]. فما يملكه الإنسان في الظاهر لا يخرج عن ملك الله تعالى، وذا الملك ما هو إلا عبارة عن تسخير وتخويل من المولى عزّ وجلّ للإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية:13]، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[غافر:16]. وهذا الجانب الثاني كما تلاحظ مبني على الجانب الأول.

ج– إفراد الله تعالى في الحكم والتشريع: بمعنى أن الله تعالى هو الحاكم المشرِع والمحلل والمحرم، لأنه هو الخالق المالك، قال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[المائدة:49]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المائدة:44]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[النساء:105]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[يوسف:40].

د– إفراد الله تعالى بالعبادة: بمعنى الامتثال الكامل لأمر الله تعالى، وهذا الجانب هو ثمرة الجانب الذي قبله من حيث أن الله عزّ وجلّ لما كان هو الحاكم المشرّع والمحلل والمحرم، وأنه لا يجوز أن يمنح هذا الحق لغير الله تعالى، كان من الطبيعي أن تكون الطاعة لله تعالى وحده، والتأكيد على حق الله تعالى وحده في العبادة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:56].

هـ– إفراد الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله: فمعنى توحيد الله تعالى في أسمائه، أنه عزّ وجلّ قد سمّى نفسه بأسماء وهذه الأسماء له وحده فلا تصرف لغيره سواء كان اسماً مجرداً من الوصف مثل "الله" أو مشتقاً منه مثل "الرحمن"، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الإسراء:110]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾[الأعراف:180]، ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:65].

وتوحيد الله تعالى في صفاته معناه أن الله تعالى قد وصف نفسه بصفات وأن هذه الصفات خالصة له وحده، ولا يجوز صرفها لسواه سواء كانت هذه الصفات قائمة بلاسم كما مرّ في اسم "الرحمن" أو مجردة منها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[البقرة:255]؛ فعلم الله تعالى ليس فيه شريك ولا يماثله علم أحد من خلقه.

وأما توحيد أفعاله فهذا تابع للجانب الأول، فالله تعالى خالق كل شيء وهذا الخلق يعني أفعالاً كثيرة كالرزق والإحياء والإماتة..إلخ.

3- أدلة التوحيد من القرآن الكريم:

أ- دليل الخلق: هذا الدليل كنا قد عرفناه في أدلة إثبات وجوده تعالى، وكنا قد أشرنا إلى أن السياق القرآني العام الذي جاء فيه إنما جاء لإثبات مسألة التوحيد رأساً ومسائل أخرى في العقيدة كاليوم الآخر، وهذا من منطلق أن وجود الله تعالى مقرر في الفطرة الإنسانية والقرآن ولا يحتاج في الحقيقة إلى إثبات كما رأينا. والاستدلال بالخلق واضح، فكل ما في الإنسان والكون والحياة يشهد أن الخالق هو الله تعالى وحده. قال تعالى:((أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ))[الأعراف:191].

ب- دليل الافتقار: وهو ما دلّ عليه قوله تعالى ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ))[فاطر:15]. ومفاد هذا الدليل أن الله تعالى يُعلم أنه موجود وأن العالم مفتقر إليه افتقاراً ذاتياً لا محيص عنه البتة. فالارتباط بين الله تعالى والعالم هو ارتباط بين واجب الوجود وممكن الوجود، وارتباط ممكن الوجود بواجب الوجود هو ارتباط افتقار ذاتي تام. وهذا الافتقار الذي عليه العالم هو دليل على وحدانية الله تعالى. ويمكن القول أن دليل الافتقار يرجع في معناه العام إلى دليل الصلاح.

ج- دليل الصلاح: وهو ما دلّ عليه قوله تعالى: ((لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ))[الأنبياء:22].فلما وجد الصلاح وهو بقاء العالم ووجوده، فدلّ على أن الموجِد له لو لم يكن واحداً ما صحّ وجود العالم. فتعدد الآلهة يؤدي بإلى فساد العالم وعدم بقائه، وأن صلاح العالم وبقاءه يستلزم كون الإله الذي أوجده واحد، وقد علمنا بانتفاء الفساد عن العالم فدل هذا على انتفاء التعدد، وهذا دليل الحق فيه على أحديته.

د- دليل النظام: ومفاده أن القانون الذي يحكم حركة الكون قانون واحد مما يدل على أن واضع هذا القانون واحد أيضاً. وقد نبّه عليه القرآن الكريم كثيراً في مثل قوله عزّ وجلّ: ((أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن

تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ))[النمل:60-61].

4- ثمرات التوحيد:

إن للتوحيد ثمرات عدة في حياة الفرد و المجتمع من أهمها:

- أنه سبب الأمن في الحياة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ((ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ))[الأنعام:82].

- السعادة وطيب الحياة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ((مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)) [النحل:97].

- الثبات في القبر، عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**المسلم إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله:** ((يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ))"[إبراهيم:27].

- أنه سبب مغفرة الذنوب، قال تعالى: ((إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ))[النساء:116].

- النجاة من الخلود في النار. فقد تواترت الأحاديث أن الموحدين يخرجون من النار، منها قوله صلى الله عليه وسلم: "**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان**".

توحيد الأسماء والصفات الإلهية في القرآن الكريم

مقدمة:

تناولنا في المحاضرة السابقة أن القرآن الكريم قد أبان بالتفصيل الشامل عن التوحيد ومسائله، وقلنا أن الكتاب العزيز تطرق إلى عرض جملة من جوانب التوحيد من بينها: إفراد المولى عزّ وجلّ بصفاته وأسمائه، بمعنى أن الله تعالى قد سمّى و وصف نفسه بأسماء وصفات وأن هذه الأسماء والصفات خالصة له وحده ولا يصح صرفها لغيره. والقارئ للقرآن الكريم يجد عرضاً كبيراً وموسعاً جداً لأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى، والتي جاءت من البساطة والوضوح بحيث يفهمها الأمي على أميته، كما جاءت في جميع القرآن الكريم بصيغ متعددة، في قصصه ومواعظه وأحكامه.

ولعلّ السؤال الذي يمكن أن نطرحه بهذا الصدد لماذا هذا العرض الهائل لأسمائه وصفاته تعالى في القرآن الكريم ؟ والجواب عن ذلك أن مبحث الأسماء والصفات في القرآن الكريم ليس مبحثاً نظرياً فلسفياً وإنما هو مبحث واقعي عملي يتطلبه واقع الإنسان على هذه الأرض. وبناءً عليه فإن كلام القرآن الكريم عن الأسماء الحسنى والصفات العلى جاء لتعمل عملها في نفس وضمير الإنسان، مما يكون له الأثر البالغ على استقامة الناس في وجودهم وسلوكهم في حياتهم، وهو مسلك القرآن الكريم الشامل عقيدة وعبادة وأحكاماً وأخلاقاً. وسنتناول مسألة الأسماء والصفات الإلهية إن شاء الله تعالى في هذه المحاضرة في أربع جزئيات هي: مفهوم الأسماء والصفات، والأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات، والفرق بين الأسماء والصفات، وأقسام الصفات، وأخيراً آثارها في الإنسان والكون.

1- مفهوم توحيد الأسماء والصفات:

توحيد الأسماء والصفات هو الإيمان بما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه، وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته من الأسماء الحسنى والصفات العلى، من غير تحريف ألفاظها أو معنيها، ولا تعطيلها بنفيها أو نفي بعضها عن الله تعالى، ولا تكييفها بتحديد كنهها وإثبات كيفية معينة لها، ولا تشبيهها بصفات المخلوقين.

2- الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات:

فمن منطلق هذا المفهوم لتوحيد الأسماء والصفات فإنه لا يجوز أن نصنع له اسما أو صفة ليست واردة في الوحيين الكريمين ولا نشبّهه بأحد من خلقه، فهو سبحانه متصف بكل كمال منزّه عن كل نقص. وعلى ذلك يمكن أن نذكر جملة من الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات وهي:

أ- تنزيه الله تعالى عن أن يشبه شيء من أسمائه وصفاته شيئاً من صفات المخلوقين، وهذا الأساس دلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:4].

ب- الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا أعلم بالله تعالى من الله تعالى. قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[البقرة:140]. ولا أعلم بالله تعالى بعد الله تعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:3-4]

ج- أن يقطع الإنسان الطمع في معرفة كيفيتها وأن لا يسأل عن ذلك ، إذ لا يُسأل عن صفات الله تعالى بـ"كيف؟". قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:110].

3- الفرق بين الأسماء والصفات:

- أسماء الله تعالى الحسنى هي: الألفاظ المجعولة أعلاماً على الذات بالتخصيص. فهي **أعلام** باعتبار دلالتها على **الذات**، وهي بهذا الاعتبار **مترادفة** لأن مسمّاها واحد، وهو الله جلّ حلاله. والحسنى مؤنث "الأحسن"، وهو المتصف بالحُسن الكامل في ذاته، المقبول لدى العقول السليمة المجردة عن الهوى.

- الصفات جمع صفة وهي ما دلّ على معنى. وأسماء الله تعالى هي **أوصاف** باعتبار دلالتها على **المعاني**، وهي بهذا الاعتبار **متباينة**، لأن كل اسم يدل على معنى خاص.

4- أقسام الصفات الإلهية:

تنقسم الصفات الإلهية باعتبار تعلقها بالله جلّ وعلا إلى: ذاتية وفعلية اختيارية، وباعتبار نوع الدليل عليها إن كان عقلياً أو خبرياً إلى: عقلية وخبرية. وقد جاء القرآن الكريم بالصفات العقلية والخبرية.

- باعتبار تعلقها بالله جلّ وعلا:

أ- الصفات الذاتية: وهي الصفات التي لا تنفك عن الذات، حيث تعتبر من لوازمها أزلاً وأبداً، كـ"الحياة" و"العلم" و"الإرادة" و"القوة" و"الوجه" و"اليدين"...إلخ.

ب- الصفات الفعلية: وهي الصفات التي تتعلق بالإرادة والمشيئة، إن شاء الله تعالى فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها. وهي أيضاً ذاتية من جهة اتصاف الله تعالى بها أزلا وأبداً، باعتبار أنه تعالى لم تحدث له صفة بعد أن لم يكن متصفاً بها.

والصفات الفعلية بعضها متعدٍ إلى مفعول كـ"الخلق" و"الرزق" و"الإحياء" و"الإماتة" و"الرضا" و"المحبة"..إلخ،وبعضها لازم لا يتعدى إلى مفعول كـ"الإتيان"و"المجيء" و"النزول" و"الضحك"..إلخ.

- باعتبار نوع الدليل عليها:

أ- الصفات العقلية: وهي التي تعرف ويستدل عليها عن طريق العقل، منها ما هو ذاتي:كالصفات الأمهات التي ترجع إليها جميع الصفات وهي :"الحياة" و"العلم" و"الإرادة" و"القدرة" و"السمع" و"البصر" و"الكلام" وغيرها. ومنها ما هو فعلي: كـ"الخلق" و"الرزق"..إلخ.

ب- الصفات الخبرية: وهي التي لا تعرف ولا يستطيع العقل إدراكها إلا بالخبر عن الله تعالى أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم، فطريق إثباتها النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية. ومنها ماهو ذاتي: كصفة "الوجه" و"اليدين" و"العين"..إلخ، ومنها ما هو فعلي: كـ"الاستواء"..إلخ.

5- آثار الصفات الإلهية في الإنسان والكون:

- مبحث الأسماء والصفات في القرآن الكريم ليس مبحثاً نظرياً فلسفياً وإنما هو مبحث واقعي عملي يتطلبه واقع الإنسان على هذه الأرض.

– إن معرفة أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى التي جاءت بها نصوص الوحي الكريم، يمكّن الإنسان بلا ريب من معرفة أن الوجود متعلق خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى والصفات العلى ومرتبط بها، والعالم وما فيه بعض آثارها ومقتضياتها.

– إن معرفة أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى بلا ريب ستثمر في قلب المؤمن زيادة في الإيمان ورسوخاً في اليقين، وتمنحه البصيرة وتجلب له النور الذي يحصّنه من الشبهات المضّلة والشهوات المحرمة.

– إن أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى هي خزائن القيم التي بها قوام تخلق الإنسان، و هي المصدر الذي تؤخذ منه هذه القيم، كما أنه المورد الذي ترجع إليه. فاسم "الرحيم" مثلاً هو مصدر قيمة "الرحمة"، وموردها أو قل هو مأخذها ومرجعها. وقس هذا الأمر على جميع الأسماء الإلهية الأخرى.

– إن الدعاء بالأسماء الحسنى والصفات العلى الذي أرشدنا الحق تعالى إليه في قوله عزّ وجل: ((قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ))[الإسراء:110]، وقوله:((وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ))[الأعراف:180]، هو دعاء مسألة ودعاء ثناء ودعاء تعبد.

– أكمل الناس عبودية لله تعالى هو المتعبد بجميع الأسماء والصفات الإلهية، فقد جاءت هذه الأسماء متناسبة مع وظيفة الإنسان على هذه الأرض. وبهذا فهي تحمل مضامين سلوكية وعملية وأخلاقية وروحية معاشة على مستوى الأنفس والآفاق، والتي تجعل من العلم بها ومعرفتها مفيداً نافعاً في الدنيا والآخرة.

الشرك في القرآن الكريم

مقدمة:

إن من أهم الأمور التي تتعلق بمسألة التوحيد على جهة النقيض تماماً والتي تستلزم الحديث عنها عند الحديث عن التوحيد: قضية الشرك. فكما اعتنى القرآن الكريم بتقرير عقيدة التوحيد اعتناءً هاماً وكبيراً، فقد اعتنى أيضاً في النهي عن ضده وهو الشرك، ومما يدلّ على ذلك أن مادة "شَرَكَ" وردت في القرآن الكريم قرابة 180 مرة، فضلاً عمّا جاء بمعناها بألفاظ أخرى. وسنتناول إن شاء الله تعالى هذه المحاضرة في خمسة عناصر نراها أساسية هي على التوالي: تعريف الشرك، و بيان خطورته، وتبيان أنه طارئ على الإنسانية، وتحديد أقسامه، وأخيراً محاولة التطرق إلى مسلك القرآن الكريم في إبطاله.

1- تعريف الشرك:

أ- لغة: هو الاشتراك مطلقاً وعدم الانفراد. وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما. يقال شاركت فلانا في الشيء إذا صرت شريكه، وأشركت فلاناً إذا جعلته شريكاً لك.

ب- اصطلاحا: هو الاعتقاد بأن لله تعالى نِداً أو شريكًا في ذاته، أو في صفاته، أو في أُلوهيته، أو في عبادته، أو في ملكه. ولذا يكون الشرك ضد التوحيد تمامًا كما أن الكفر ضد الإيمان. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال له: ما شاء الله وشئت: "**أجعلتني لله نداً**".

2- خطورته:

- وردت الكثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في التحذير من الشرك وبيان خطره، وأنه أعظم ذنب عُصي المولى عزّ وجلّ به، وأن صاحبه ضال مخلد في النار. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[الزمر:65]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾[الحج:31].

- الشرك هو الذنب الوحيد المتميز عن بقية الذنوب بعدم المغفرة لصاحبه إذا مات ولم يتب منه، أما بقية الذنوب فهي في المشيئة الألهية. قال جلّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:48].

– الذنوب التي هي دون الشرك جعل المولى عزّ وجلّ لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية والمصائب المكفّرة في الدنيا والبرزخ والآخرة، وكدعاء المؤمنين لبعضهم البعض، وشفاعة الشافعين، وفوق ذلك كله رحمة الله تعالى التي خص بها أهل التوحيد. وهذا بخلاف الشرك، فإن المشرك سدّ على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات دون التوحيد.

3– التوحيد أصل والشرك طارئ:

ذهب الكثير من الباحثين الغربيين المتخصصين في تاريخ الأديان والعقائد القديمة والانتروبولوجيا إلى القول بأن الإنسان لم يعرف عقيدة التوحيد على ما يعرفها عليه اليوم مرة واحدة، ولكن عقيدته كانت شركية متعددة وترقت وتطورت في فترات تاريخية وقرون متعاقبة حتى وصلت إلى الظهور في مظهر التوحيد كما هو في الأديان الكبرى وعلى رأسها الإسلام. والسبب في ذلك يعود إلى تصورهم أن الإنسان الأول وجد ناقصاً وأنه اهتدى إلى العقيدة بنفسه.

وهذا الرأي كما تلاحظ مخالف تماما لما جاء به القرآن الكريم الذي قرر أن العقيدة الأولى الأصلية للبشرية هي عقيدة التوحيد، وأن الإنسان الأول الذي هو آدم عليه الصلاة والسلام خلقه الله تعالى سوياً ومتكاملاً لغاية محددة وهي عبادته عزّ وجلّ وحده لا شريك له وأهله لذلك، وعرّفه على نفسه منذ البداية ولم يتركه لنفسه بل هداه إليه تعالى. ولما أهبطه الله تعالى إلى الأرض وأنشأ من ذريته أمة كانت هذه الأمة على التوحيد الخالص كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[البقرة:213]. فالجيل الأول من البشرية إذن كان على التوحيد، وأول انحراف في العقيدة وقع به الشرك إنما كان في قوم نوح عليه الصلاة والسلام. ومن هنا فإن السبب في الشرك ليس هو الترقي والتطور في الاعتقاد وإنما في الانحراف ومخالفة منهج الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

4– أقسام الشرك:

في المصطلح الشرعي الشرك نوعان: الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

أ– الشرك الأكبر: هو أن يُجعل لله ندًا يعبده كعبادته ويطيعه كطاعته؛ فالمراد به هنا الشرك بمعناه الخاص، وهو النوع الذي يوجب الخلود في النار، والخروج عن ملة الإسلام. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:72]. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "**يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك...**".

وهذا الشرك جعل له بعضهم صوراً ونماذج متعددة لا سبيل إلى ذكرها هنا، فما يهمنا هنا هو المفهوم الكلي الشامل للشرك الأكبر.

ب- الشرك الأصغر:

وهو مراعاة غير الله تعالى معه في بعض الأمور وهو كل وسيلة إلى الشرك الأكبر لا يخرج صاحبه من الملة، ولا ينافي أصل التوحيد ولكنه ينافي كماله. وهو من أكبر الكبائر، وله نماذج وصور متعددة:

- قولي وفعلي: كالحلف بغير الله تعالى، وقول القائل:"لولا الله وأنت". وكالتطير وهو الامتناع عن فعل شيء بسبب التشاؤم من شيء كان قد رآه أو سمعه ..إلخ.

- وخفي: وهو شرك الإرادات والمقاصد والنيات، كالرياء وطلب السمعة وحب الظهور..إلخ. وفي النهي عن هذا الشرك نزل قوله تعالى: ((فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا))[الكهف:110]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء**".

ولذلك فالمؤمن لا يأمن ذنوبه، ولا يثق بكثرة العمل، لأن الأعمال مُغيّبة عن العبد ولا يدري ما الله تعالى صانع به.

5- مسلك القرآن الكريم في إبطال الشرك:

سلك القرآن الكريم مسالك متعددة في إبطال الشرك منها:

أ- النهي الصريح عن جميع أنواع الشرك. قال تعالى:((وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا)) [النساء:36].

ب- الدعوة إلى التفكر في الآيات الأنفسية الإنسانية والآفاقية الكونية من منطلق أن التأمل والنظر والتفكّر فيها سيقود الإنسان حتماً إلى توحيد الله عزّ وجل. قال تعالى: ((سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ))[فصلت:53].

ج- ذم آلهة المشركين وإظهار عجزها، فهي أوثان ناقصة عاجزة لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعاً، ولذلك انتقصها وقبّحها القرآن الكريم وبيّن ضعفها وعجزها وحقارتها. فقد وصفها بأنها مخلوقة، والعبادة إنما تكون للخالق لا للمخلوق، وهي ميتة لا روح فيها فكيف يرجى عبادتها واستجابتها؟ قال تعالى: ((وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ))[النحل:20-21]. وهي فاقدة للسمع والبصر، ومن كان بهذه

الصفة فإنه لا ينفع عابده مثقال ذرة. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[مريم: 42]، وأيضاً [الأعراف:194-195].

د- تسفيه عقول المشركين والتشنيع عليهم في آرائهم الضالة، من حيث أن الشرك من أعظم السفاهات وأكبر الضلالات. قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء:66-67].

هـ- التذكير بعقوبة المشركين السابقين. قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم:42].

أدلة المتكلمين في إثبات وجود الله تعالى

مقدمة:

بلور المتكلمون عدة أدلة في إثبات وجود الله تعالى، ومن أهم خصائص البحث في هذه الأدلة أنها على تنوعها تلتقي عند خاصية: "الاتجاه من العالم نحو الله تعالى لإثبات وجوده". ومن بين أهم هذه الأدلة نكتفي بدليلين اثنين هما دليل الحدوث ودليل التمانع.

1- دليل الحدوث:

لم يختلف المتكلمون بجميع مدارسهم في الاستدلال على إثبات وجود الله تعالى بـ"دليل الحدوث"، وإن اختلفوا في تحريره، وهو دليل جادل وناظر به المتكلمون الفلاسفة في مسألة "قدم العالم". ويعود الفضل في اصطناع هذا الدليل أو المنهج إلى المعتزلة حيث تعود هذه الطريقة في الاستدلال إلى أحد شيوخ المعتزلة وهو "أبو الهذيل العلاّف" رحمه الله تعالى (ت 235هـ). والأشاعرة أنفسهم رحمهم الله تعالى تبنوا هذا الدليل ونسجوا على منوالهم. فقد اعتبر المتكلمون أن هذا العالم بما فيه من الجواهر والأعراض والأجسام حادث، كما أكدوا على أنه غير مكتفٍ بذاته إذ هو متصف بالاحتياج في حدوثه إلى غيره وهو الله تعالى.

– والمراد بكلمة "العالم" عند المتكلمين: كل شيء سوى الله تعالى، وهو عبارة عن جواهر وأجسام وأعراض.

* الجوهر: هو الجزء البسيط الذي الذي لا يقبل القسمة، وهو المتحيّز وكل ذي حجم متحيّز فهو جوهر.

* والعرض: هو المعنى القائم بالجوهر والجسم، وهو ما يحتاج في وجوده إلى جوهر وجسم يقوم به ويحل فيه مثل: اللون، الصوت، الحركة، السكون، الحياة، الموت..إلخ.

* والجسم: وهو المتألف والمركب من جزئيات، فإذا تألف جوهران كان جسماً.

– والمراد بكلمة "حادث" في قولنا "العالم حادث"، أنه موجود بعد العدم.

ومفاد دليل الحدوث هو: أن العالم كله حادث، أي أنه موجود بعد العدم، وبما أنه حادث فهو محتاج إلى من يحدثه، ويوجده بعد العدم، لأنه يستحيل عقلاً أن يوجد حادث بلا مُحدِث أو فعل

بلا فاعل، وهذا أمر بديهي، وذلك المحدِث الذي أحدثه وأوجده هو الله تعالى. وبناءً عليه فدليل الحدوث يعتمد عل ركنيين أساسيين:

- إثبات أن الأجسام مُحدَثة.
- إثبات أن لها مُحدِثاً هو الله تعالى.

ولكن كيف أثبت المتكلمون أن العالم مُحدَث ومنه أن المولى عزّ وجلّ مُحدِثه؟

– أجاب أبو الهذيل العلاّف عن ذلك بقوله:"إن الأجسام لم تنفك من الحوادث ولم تتقدمها، وما لم يخل من الحوادث ولم يتقدمه يجب أن يكون مُحدَثاً مثله". وقد حرر القاضي عبد الجبار رحمه الله تعالى(ت415هـ) وهو من كبار شيوخ المعتزلة، هذا الدليل فجعله ينبني على أربعة أمور أساسية:

إحداها: أن في الأجسام أعراض أو معاني الاجتماع والافتراق والسكون والحركة..إلخ.

الثانية: أن هذه الأعراض أو المعاني مُحدَثة.

الثالثة: أن الجسم لم ينفك عنها ولم يتقدمها.

الرابعة: أنها إذا لم ينفك عنها ولم يتقدمها وجب حدوثه مثلها.

– وأكد أبوبكر الباقلاني رحمه الله تعالى (ت403هـ) أحد أعلام الأشاعرة على ذلك بقوله:"جميع العالم العلوي والسفلي مُحدَث بأسره. والدليل على حدوثه أن الأعراض حوادث. والدليل على حدوث الأعراض بطلان الحركة عند مجيء السكون، لأنها لو لم تبطل عند مجيء السكون لكانا موجودين في الجسم معاً، ولوجب لذلك أن يكون متحركاً ساكناً معاً. وذلك مما يُعلم فساده ضرورة. والدليل على حدوث الأجسام أنها لم تسبق الحوادث ولم توجد قبلها، وما لم يسبق المحدَث فهو مُحدَث مثله، إذ كان لا يخلو أن يكون موجوداً معه أو بعده، وكلا الأمرين يوجب حدوثه".

بمعنى آخر، أن الأعراض التي هي صفات الأجسام حادثة بالمشاهدة، فإننا نرى حدوث الحركة بعد السكون، والسكون بعد الحركة، ونرى تغير لون الأشياء وشكلها ومقدارها من حال إلى حال، وهذا يدل على حدوثها. أما الأجسام فهي حادثة أيضاً، لأن أي جسم من الأجسام لا يخلو عن الأعراض الحادثة، كالحركة والسكون مثلاً، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.

– ويذهب الشهرستاني إلى القول بأن:"العالم محدث ومخلوق، أحدثه الباري تعالى وأبدعه، وكان الله تعالى ولم يكن معه شيء". والعبارة الأخيرة من قول الشهرستاني هي طرف من حديث نبوي

شريف مما جاء فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم:"كان الله ولم يكن شيء غيره،وكان عرشه على الماء،وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض".

– كما أننا نجد العضد الإيجي يقرر كذلك هذه المسألة الكبرى،ألا وهي إثبات الصانع، من خلال دليل الحدوث أيضاً. حيث يذهب إلى أن مسلك المتكلمين هنا يقوم أصلا على النظر إلى العالم على أنه إما جواهر وإما أعراض، وهم يستدلون بكل واحد منهما من خلال إمكانه أو حدوثه على الُمحدث. وهذا انطلاقا من عدة وجوه منها: الاستدلال بحدوث الجواهر، وهو أن العالم حادث، وكل حادث فله مُحدِث. ومنها: الاستدلال بإمكانها، وهو أن العالم ممكن، لأنه مركب وكثير، وكل ممكن فله علة مؤثرة.

2– دليل التمانع:

لقد رأى المتكلمون القول بأن العالم مُحدَث وأن مُحدِثُه هو الله تبارك وتعالى لا ينفي إمكانية أن يكون المحدِث للعالم متعدداً، أي أن يكون الذي أحدث العالم أكثر من إله واحد. ومن هنا فقد استتبعوا استدلال الحدوث بدليل آخر اصطلحوا على تسميته بـ"دليل التمانع". ويبدو أن الخلاف بينهم في تحريره شكلي حيث تنوعت عباراتهم من غير مساس بجوهر الدليل.

– وقد لخصه إمام الحرمين أبو المعالي الجويني رحمه الله تعالى (ت478هـ)، وهو أحد كبار أعلام الأشاعرة في الآتي: لو قدّرنا إلهين وفرضنا عرضين وقدرنا إرادة أحدهما لأحد الضدين وإرادة الثاني الضد الآخر، فلا يخلو ذلك من أمور ثلاثة:

الأول:إما أن تنفذ إرادتهما معاً، وهذا مستحيل.

الثاني: أن لا تنفذ إرادتهما، وهذا مستحيل.

الثالث: أن تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر، والذي تنفذ إرادته هو الإله الحق.

– ويذهب الإمام الأشعري إلى القول بأن مُحدِث العالم واحد، لأن الاثنين لا يجري تدبيرهما على نظام ولا يتسق على أحكام ولا بد أن يلحقهما العجز أو أحداً منهما، لأن أحدهما إذا أراد أن يحيي إنساناً وأراد الآخر أن يميته لم يخل الأمر من الآتي: أن يتم مرادهما أو لا يتم، أو يتم مراد

أحدهما دون الآخر ويستحيل أن يتم مرادهما جميعاً، وإن تم مراد أحدهما وجب عجز الآخر فلا يكون إلهاً.

– وقد عزّز الإمام أبو منصور الماتريدي دليل التمانع باستدلالات أخرى منها: مجيء الرسل عليهم الصلاة والسلام بالآيات، حيث يرى أن لو كان هناك أكثر من إله لامتنع إظهار هذه الآيات، فالرسل عندما قدروا على إظهار هذه الآيات دلّ ذلك على أن الإله الحق واحد وهو الذي قهر كل متعنت مكابر. ومنها دقة صنع العالم، إذ لو كان هناك أكثر من إله لاختلفت التدبيرات والمرادات ولما كانت هذه الدقة والتناسق.

ويستدل جل المتكلمين على دليل التمانع من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[الأنبياء:22]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون:91].

مفهوم التوحيد عند المتكلمين

1- التوحيد عند المعتزلة:

عرّف القاضي عبد الجبار التوحيد بقوله:

- "**التوحيد في أصل اللغة** عبارة عما يصير به الشيء واحداً، كما أن التحريك عبارة عمّا يصير به الشيء متحركاً، والتسويد عمّا يصير به الشيء أسوداً، ثم يستعمل (أي التوحيد) في الخبر عن كون الشيء واحداً (...)

- **فأما في الاصطلاح** فهو العلم بأن الله تعالى واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً وإثباتاً على الحد الذي يستحقه والإقرار به، ولا بد من اعتبار هذين الشرطين: العلم والإقرار جميعاً، لأنه لو علم ولم يقر أو أقر ولم يعلم لم يكن موحداً ".

ويزيد القاضي عبد الجبار مفهوم التوحيد وضوحاً أكثر عند المعتزلة في بيانه لحقيقة معنى الواحد فيقول:"اعلم أن الواحد قد يستعمل في الشيء ويراد به أنه لا يتجزأ أو لا يتبعض على نقوله في الجزء المنفرد أنه واحد (...) وقد يستعمل ويراد به أنه يختص بصفة لا يشاركه فيها غيره، كما يقال فلان واحد في زمانه. وغرضنا إذا وصفنا بأن الله تعالى واحد إنما هو القسم الثاني لأن مقصودنا هو مدح الله بذلك، ولا مدح في أن لا يتجزأ ولا يتبعض، وإن كان كذلك، لأن غيره يشاركه فيه"

وبناءً عليه يذهب المعتزلة إلى التنزيه المطلق للذات الإلهية، ونفي المثلية عنه بأي وجه من الوجوه، وهو ما يسمى عندهم بـ"التوحيد التنزيهي"، ونظرا لحرصهم الشديد على هذا المفهوم للتوحيد من أجل تنزيه الله تعالى مطلقا، فقد أدى بهم ذلك إلى الوقوع في نفي صفات الله تعالى، مخالفين بذلك جمهور العلماء من أهل السنة، كما سنرى لاحقاً في محاضرة الصفات الإلهية عند المتكلمين.

2- التوحيد عند الأشاعرة:

- ينقل عن الكثير من شيوخ الأشاعرة رحمهم الله تعالى ما يفيد الجمع بين معاني التوحيد التي تشمل الجانب النظري والجانب العملي معاً. وبهذا الصدد فقد عرّف أبو بكر الباقلاني التوحيد بقوله: "التوحيد له (أي الله تعالى) هو الإقرار بأنه ثابت موجود وإله واحد فرد معبود ليس كمثله شيء على ما قرر به قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:163]، وقوله تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:11]". فقد أشار الباقلاني في هذا التعريف إلى التوحيد بجميع

معانيه أو أقسامه التي قسّمه البعض إليها وهي توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

– والأمر نفسه نجده عند الإمام الجويني الذي عرّف التوحيد تعريفاً جامعاً فقال: "إذا سُئلنا عن الواحد قلنا للسائل: هذه الصيغة مترددة بين معانٍ، فقد يطلق الواحد ويراد به الشيء الذي لا ينقسم وجوده (...) وقد يطلق والمراد به نفي النظائر والأشكال عن الموصوف بالاتحاد (...) وقد يطلق الواحد ويراد أنه لا ملجأ ولا ملاذ بسواه (...) وهذه المعاني الثلاثة تتحقق في صفة الإله فهو المتحد في ذاته المتقدس عن الانقسام والتجزيء، وهو الواحد على أن لا ملجأ في دفع الضرر والبلوى ولا ملجأ سواه ولا ملاذ في انتفاء النفع ورَوم دفع الضر إلا إياه، ولا يستقيم اعتقاد الوحدانية لمن حُرِم ركناً من هذه الأركان الثلاثة".

3– التوحيد عند الماتريدية:

والواحد عند الماتريدية صفة سلبية تقال على ثلاثة أنواع:

– الأول: الوحدة في الذات، والمراد بها انتفاء الكثرة عن ذاته تعالى، بمعنى عدم قبول القسمة.

– الثاني: الوحدة في الصفات، والمراد بها انتفاء الكثرة عن ذاته تعالى في كل صفة من صفاته.

– الثالث: الوحدة في الأفعال، والمراد بها انفراده تعالى باختراع جميع الكائنات.

ويذهب الماتريدية إلى أن التوحيد هو نفي الشريك والقسيم والشبيه. فالله تعالى واحد في أفعاله لا يشاركه أحد في إيجاد المصنوعات، وواحد في ذاته لا قسيم له ولا تركيب، وهو واحد في صفاته لا يشبه الخلق فيها.

4– التوحيد عند بعض أهل العلم:

* يقسّم ابن تيمية رحمه الله تعالى(ت728هـ) التوحيد إلى ثلاثة أنواع:

أ– توحيد الربوبية: وهو الإقرار بأن الله تعالى ربُّ كل شيء ومالكه وخالقه ومدبره.

ب– توحيد الألوهية: وهو إخلاص التأله لله تعالى بإخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له.

ج- توحيد الأسماء والصفات: وهو الإقرار بأن الله تعالى متفرد بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

* ويقسّم تلميذه ابن قيّم الجوزية رحمه الله تعالى(ت751هـ) التوحيد إلى نوعين:

أ- توحيد في المعرفة والإثبات، أي: التوحيد العلمي (توحيد الله تعالى في العلم والاعتقاد)

ب- توحيد في القصد والطلب، أي: التوحيد العملي (توحيد في العمل والفعل).

الصفات الإلهية عند المتكلمين

1- الصفات الإلهية عند المعتزلة:

رأينا في المحاضرة السابقة أن المعتزلة يذهبون في التوحيد مذهباً تنزيهياً مطلقاً، ونفي المثلية عن الله عزّ وجلّ بأي وجه من الوجوه. وفي إطار هذا التوحيد الذي يقوم على تنزيه الله تعالى مطلقاً نشأت عندهم مباحث متعددة من أهمها مبحث الصفات.

– وقد اتفقوا على الإقرار بأن الله تعالى لم يزل موجوداً قبل الخلائق، ولم يزل عالماً، قادراً، حياً. وتعتبر صفة "القدرة" عندهم هي أم الصفات، وعليها يترتب ما عداها. قال القاضي عبد الجبار: "اعلم أن أول ما يعرف استدلالا من صفات القديم جلّ وعزّ إنما هو كونه قادراً، وما عداه من الصفات يترتب عليه".

– وقالوا إنه تعالى يتصف بهذه الصفات الأربع لذاته، وليست زائدة على الذات. بمعنى أن صفات الباري عزّ وجلّ هي عين ذاته، لا معانٍ زائدة على الذات. فإذا قلت بأن الله تعالى "عالمٌ" فقد أثبت لله علماً هو ذاته وليس صفة زائدة على ذاته، فالله تعالى عالمٌ دون أن يتصف بشيء اسمه العلم، و"قادر" دون أن تُسند إليه صفة اسمها "القدرة"، فهو جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه لا صفات له، وإنه لا علم له، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمع، ولا بصر.. فهو عالم بلا علم، وقادر بلا قدرة، وحي بلا حياة، وسميع بلا سمع، وبصير بلا بصر..إلخ. وهذا ما يسمى في الاصطلاح الكلامي بـ"نفي الصفات" أو "تعطيل الصفات".

– وقد حملهم على نفي الصفات أو تعطيلها تصورهم أن إثبات الصفات، بالقول بأنها معانٍ زائدة على الذات، يؤدي إلى الوقوع في التناقض مع أصل التوحيد الواجب إثباته لله تعالى، لأن الله تعالى وِحدة وليست كثرة. فلو قلنا بأنها زائدة على الذات لاستلزم أن تكون ذاته جوهر يتقوّم بصفات كثيرة وهذا يؤدي إلى نتيجتين تخالفين أصل التوحيد: **الأولى**: مشاركة الصفات للذات في القدم ومن ثمة مشاركته في الألوهية، من حيث أن المولى عزّ وجلّ متصف بالقدم وهذا يؤول إلى تعدد القدماء. و**الثانية**: استلزام التشبيه والتجسيم للذات الإلهية، من حيث أنه تعالى لو قامت به الصفات لكان جسماً، ولو كان جسماً لكان مماثلاً لسائر الأجسام، فالصفات هي أعراض ومعانٍ، والأعراض كما رأينا لا تقوم إلا بالأجسام. وذلك ممتنع على الله تعالى.

– ولكن ما سوى هذه الصفات مما ورد في الكتاب والسنة والتي قد يدل ظاهر معناها على التجسيم مثل: الاستواء على العرش، والوجه واليد وغيرها من الصفات الخبرية الأخرى هو مما يخالف التوحيد التنزيهي الذي أثبته المعتزلة لله تعالى فكيف تعاملوا معه ؟

لم يجد المعتزلة من بد لنفي هذه الصفات التي يفيد ظاهرها التشبيه سوى التأويل، تأويل الآيات القرآنية تأويلاً عقلياً بما يتفق مع أصل التوحيد عندهم، وذلك بصرف هذه الصفات عن ظاهرها. وكأمثلة على ذلك:

– الاستواء: أوَّلوه بمعنى الاستيلاء والغلبة على العالم.
– اليد: أوَّلوها بمعنى القوة والنعمة.
– جنب الله: قالوا طاعة الله تعالى.
– الساق: قالوا الشدة.
– العين : أوَّلوها بالصنع والعلم.
– الوجه : قالوا ذات الله تعالى.
– المجيء : أوَّلوه جاء ميعاد ربك ...إلخ.

2– الصفات الإلهية عند الأشاعرة:

يعتقد الأشاعرة أن الله تعالى متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص. إذ أن ألوهيته تعالى تستلزم اتصافه بالكمال المطلق لزوماً بيّناً. ويذهبون إلى أن المولى عزّ وجلّ وصف نفسه في كتابه الكريم بصفات كثيرة مختلفة إلا أن جزئيات هذه الصفات كلها تلتقي ضمن عشرين صفة رئيسية ثبتت بدلالة الكتاب وبالبراهين القاطعة.

وقد قسّموا هذه الصفات إلى أربعة أقسام هي:

الصفة النفسية، الصفات السَلبية، صفات المعاني، الصفات المعنوية.

أ– الصفة النفسية: هي صفة ثبوتية يدل الوصف بها على الذات دون معنى زائد عليها وهي الوجود.

ب– الصفات السَلبية: هي كل صفة مدلولها عدم أمر لا يليق بالله تعالى. وهناك خمس صفات هي أمهات الصفات السَلبية كلها وهي:

– **الوحدانية:** سلب تصور الكمية في ذاته وصفاته سبحانه وتعالى.

– **القِدم:** معناه عدم وجود أول له سبحانه وتعالى.

- **البقاء**: امتناع لحوق العدم بذاته تعالى.
- **القيام بالذات**: غير مفتقر إلى موجِد يوجده ولا إلى محلٍ يقوم به.
- **المخالفة للحوادث**: عدم مماثلته عزّ وجلّ للحوادث.

ج- صفات المعاني: وهي كل صفة قائمة بذاته سبحانه وتعالى تستلزم حكماً معيناً له، كصفة العلم مثلاً فهي تستلزم أن يكون المتصف بها عليماً. وقد أثبت الأشاعرة سبع صفات لله تعالى هي: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام. وقالوا بأن هذه الصفات ليست عين الذات كما ذهب إلى ذلك المعتزلة بل هي صفات زائدة على الذات. فقولنا الله تعالى عالم، أي: أنه ذو علم، وقادر، أي: أنه ذو قدرة وهكذا في جميع الصفات.

د- الصفات المعنوية: وهي نتائج صفات المعاني، أي: هي الأحكام التي تترتب على ثبوت صفات المعاني. فهي كونه جلّ جلاله: حياً، عليماً، مريداً، قادراً، سميعاً، بصيراً، متكلماً.

وملخص القول أن الأشاعرة رحمهم الله تعالى أثبتوا الصفات الإلهية، وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، كما نفوا عن الله تعالى مشابهته للمخلوقات، وذهبوا إلى أن الصفات قامة بالذات على الحد الذي لا يقال فيه هي هو أو هي غيره أو بعبارة أخرى ليست عين الذات، ولا غير الذات.

3- الصفات الإلهية عند الماتريدية:

أثبت الماتريدية صفات المعاني السبع التي أثبتها الأشاعرة وأضافوا عليها صفة ثامنة سمّوها "التكوين". والمقصود من صفة التكوين عندهم:"الفعل والتخليق" أي: إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود. وهي لديهم مرجع لجميع صفات الأفعال المتعدية: كالإحياء والإماتة والخلق والرزق..إلخ.

وقد رجّح بعض الماتريدية تأويل الصفات الخبرية، مثلاً: كتأويل صفة "الوجه" بالذات أو الوجود، وصفة "النزول" الوارد في الحديث الصحيح باللطف والرحمة. إلاّ أن بعضهم رجّح التفويض.

وجود الله تعالى والتوحيد عند الفلاسفة الإسلاميين

بعد أن تطرقنا إلى مسألة الإلهيات في نصوص الوحي الكريم وعند المتكلمين، سنحاول إن شاء الله تعالى أن نتحدث عن أدلة الوجود الإلهي عموماً وعن مفهوم التوحيد عند الفلاسفة الإسلاميين، ولكن قبل ذلك نسأل من هم الفلاسفة الإسلاميون ؟

1- التعريف بالفلاسفة الإسلاميين:

عندما انتقلت الفلسفة اليونانية إلى الحضارة الإسلامية في عصر ازدهارها عن طريق الترجمة اهتم بها العديد من العلماء المسلمين وحاولوا أن يوفقوا بينها وبين الشريعة الإسلامية، حاولوا أن يوفقوا بين العقل الذي يمثله التفكير الفلسفي، وبين النقل الذي يمثله الدين الإسلامي، وبهذه الصورة ظهرت الفلسفة الإسلامية التي تعتبر محاولة للتوفيق بين الفلسفة اليونانية وبين قضايا الإسلام الأساسية. وقد سمي المشتغلين بهذا النوع من التفكير بـ"الفلاسفة الإسلاميين". وهم الذين حاولوا أن يراعوا في تفلسفهم وعملهم الفكري بين ما جاءت به الفلسفة اليونانية وما جاء به الإسلام.

2- الأدلة على وجود الله تعالى عند الفلاسفة الإسلاميين:

نهج الفلاسفة الإسلاميون في الاستدلال على وجود الله تعالى عموماً نهج المتكلمين، عوّلوا فيه على دليلين: **الدليل الكوني** : الذي يحاول أن يثبت وجود الله تعالى عن طريق الكون. **والدليل الغائي**: الذي يستخلص من نظام الكون وإبداعه أن له هدفاً وغاية لا تصدر إلا عن مدبر حكيم. ويعتمد هذان الدليلان على مبدأ العلية، سواء كانت علة فاعلية أم علة غائية.

أ- برهنة الكندي (185هـ-256هـ):

يرى أبو يعقوب الكندي أن العالم حادث ومركب، وهو لهذا في حاجة إلى مُحدِث يُحدِثه ومُركِّب يركبه، يقول:"والواحد الحق هو الأول المبدع الممسك كل ما أبدع. فلا يخلو شيء من إمساكه وقوته إلا دثر". وكما عوّل على الدليل الكوني هنا فقد عوّل أيضاً على الدليل الغائي كما نلاحظ من خلال قوله:"أن في نظْم هذا العالم وترتيبه، وفعل بعضه في بعض، وانقياد بعضه لبعض،وتسخير بعضه لبعض، وانقياد هيئته على الأمر الأصلح في كون كل كائن، وفساد كل فاسد، وثبات كل

ثابت، وزوال كل زائل، لأعظم دلالة على أتقن تدبير، ومع كل تدبير مدبّر، وعلى أحكم حكمة، ومع كل حكمة حكيم".

ب– برهنة الفارابي (260هـ–339هـ) وابن سينا (370هـ–427هـ):

قسّم كل من الفارابي وابن سينا الوجود إلى قسمين: واجب و ممكن. وذهبا إلى أن أي موجود لا يخلو من أن يكون له علة في وجوده أو لا علة في وجوده. فإن كان له علة كان متصفاً بإمكان الوجود فهو "ممكن الوجود". وإن لم يكن له علة في وجوده وكان قائماً بذاته لا يحتاج في قيامه إلى أي علة مهما كان نوعها، كما لا يمكن تخيل عدم وجوده، فذاك "واجب الوجود". ثم إنهما استدلا بـ"ممكن الوجود"(= العالم) على "واجب الوجود"(= الله تعالى)، من حيث أن ممكن الوجود وُجِد بعد أن لم يكن، أي بعد أن كان عدماً. وخروجه من حال العدم إلى حال الوجود يستلزم عقلاً ومنطقاً أن هناك مُرجِّحٍ رَجَّح وجوده على عدمه، بإخراجه من العدم إلى الوجود. وهذا المرجِّح هو بلا ريب الذي وجوده قائم بذاته ولا علة له، بل هو علة العلل وهو واجب الوجود، وهو الله تعالى.

يقول ابن سينا:"لا يُشك أن هنا وجوداً، وكل وجود فإما واجب وإما ممكن. فإن كان واجباً فقد صحّ وجود الواجب، وإن كان ممكناً فإنا نوضّح أن الممكن ينتهي في وجوده إلى واجب الوجود".

ج– برهنة ابن رشد (520هـ–595هـ):

وضع ابن رشد الحفيد في برهنته على إثبات وجود الله تعالى عدة أدلة من أهمها الآتي:

– **دليل العناية:** وملخصه أن نظام الكون يكشف عن تناسق ملحوظ في أجزائه وفي جميع الكائنات الموجودة فيه، والمتفكر فيه بعقله يعرف أنه ليس تناسق شكلي، بل هو تناسق محكم في داخله وخارجه، وأن هذا التناسق ليس محض الصدفة وإنما هو صنع إله مدبر حكيم.

– **دليل الاختراع:** ومفاده أن في الكون خَلْقاً وحركة مستمرين، والخلق لا بد له من خالق، والحركة لا بد لها من محرك. والخالق والمحرك هو الله تعالى.

وهذان الدليلان عند ابن رشد مترابطان متكاملان، ويصلحان للعامة والخاصة لأنهما يعتمدان على معرفة مباشرة، أي: البداهة والحس، كما أنهما مستمدان من تعاليم الإسلام ويلبيان دعوة القرآن

الكريم إلى النظر في عجائب الكائنات. قال تعالى:((أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ))[الأعراف:185].

– **دليل المُحرِّك والمتحرك:** يقوم هذا الدليل، الذي استفاده ابن رشد من الفيلسوف اليوناني "أرسطو"(385-322 ق.م) ، على مسلّمات وهي عموماً أن كل حركة لا بد لها من محُرِّك، وأن المتحركات في سعي مستمر وراء الكمال فلا بد أن تنتهي إلى المحرِّك الأول الذي يحرِّك غيره. فحركة المتحركات إذن تستلزم باعثاً وغايةً على الحركة وهو الله جلّ شأنه. وقد حاول ابن رشد أن يوافق هذا الدليل مع الأدلة النقلية وعلى رأسها حِجاج نبي الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه في مسألة "أفول الكواكب والنجوم" الواردة في قوله تعالى: ((وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ))[الأنعام:75-78]. حيث احتج على قومه بعدم استحقاق هذه المخلوقات للعبادة مفسراً "الأفول" بالحركة، وأن الحركة لا بد لها من محرِّك لأن الموجودات من المستحيل أن تتحرك من ذاتها.

3–التوحيد والصفات الإلهية عند الفلاسفة الإسلاميين:

يمكن القول إجمالا إن الألوهية عند الفلاسفة الإسلاميين تقوم على أمرين اثنين هما: التوحيد والتنزيه. فهم يقولون بتوحيد يجعل من الصفات عين الذات، ويستمسكون بالبساطة التي لا تسمح بأي تركيب في حقيقة الذات الإلهية ولا في مدلولها. ويذهبون إلى تنزيه ينفي الزمان والمكان والمادية والجسمية، ويميّز الخالق عن المخلوق تمييزا تاماً مطلقا.

– **يذهب الكندي** إلى أن الله تعالى واحد غير متكثر لا يشبه خلقه في شيء، دائم لا يفنى، وهو الواحد الحق، لأنه واحد بالذات لم يستفد وحدته من غيره، وواحد بالعدد لا يقبل كماً ولا كيفاً، ولا يدخل تحت الكائنات تحت جنس أو نوع، وهو العلة الأولى التي لا علة لها. وهو الخالق القادر المبدع الحكيم. وبناء عليه فإن الكندي يثبت للباري تعالى صفات الذات والأفعال والسلوب، على نحو ما تطرقت إليه المعتزلة، حيث يجعلها عين الذات.

ويمكن القول أن الكندي لم يخرج عن أساس العقيدة الإسلامية، الذي هو التوحيد، حيث يثبت لله تعالى القدرة والقوة المطلقة، والخلق والإبداع.

– **ويرى الفارابي** أن الله تعالى هو الواجب الوجود بذاته، والسبب الأول لكل موجود، وهو بجوهره عقل بالفعل لأنه منزه عن المادة. وهو عالم لأنه يعلم ذاته، ولا يحتاج إلى ذات أخرى يستمد منها العلم، وهو مدبر جميع الكائنات،لا يعزب عنه مثقال حبة من خردل، ولا يفوت عنايته شيء، فآثار هذه العناية بادية للعيان. كما يذهب إلى أن أسماء الله تعالى تدل على الكمال والجلال، دون أن تكون شيئاً زائدا عن الذات.

– **وابن سينا** يرى أن الله تعالى هو الواجب بذاته، لا يشاركه شيء من الأشياء في ماهيته، فلا ند له ولا ضد، ولا جنس ولا فصل، ولا حد له. فهو تعالى عالم بالكليات والجزئيات غير أن علمه بالجزئيات لا يدخل في مقولة الزمان، بل هو علم أزلي أبدي، لا يصدق عليه الآن ولا الماضي ولا المستقبل، هذا العلم هو ما نسميه العناية، فعناية الله تعالى إحاطته بكل شيء.

ويبدو مما تقدم أن كلا من الفارابي وابن سينا متأثران بفلسفة أرسطو، ولا أدلّ على ذلك من قولهما:"الواحد عقل يعقل ذاته". ويمكن القول أيضاً أن مفهوم الألوهية عند الفارابي وابن سينا أعمق في التنزيه وأبلغ في التجريد مما قال به المعتزلة الإله تُبعد الإله تماماً عن كل ما له شائبة الحس والمائدة، وتصوره تصويراً عقلياً بحتاً وهو تصوير أقرب إلى فكرة التسامي اللانهائية.

هذا وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى انتقد بشدة الفارابي وابن سينا في عشرين مسألة، منها ثمانية مسائل أساسية في الإلهيات كفّرهم في ثلاثة منها: هي قولهم بأن العالم قديم، وقولهم بأن الله تعالى لا يعلم الجزئيات، وقولهم بأن المعاد روحاني وليس جسماني في كتابه "تهافت الفلاسفة". وقد رد عليه الفيلسوف ابن رشد محاولا الدفاع عنهما وتأويل كلامهما في كتاب سمّاه "تهافت التهافت".

المحور الثاني

النبـــــــــــوّات

طبيعة النبوة ووجه الحاجة إليها

مقدمة:

بعد أن تعرفنا في المحور الدراسي الأول على أهم المسائل والقضايا العقدية التي تتعلق بالإلهيات في نصوص الوحي الكريم وعند المتكلمين وبصفة عامة عند الفلاسفة، سنتناول إن شاء الله تعالى في هذا المحور الثاني النبوات من عدة جوانب رئيسية: من حيث طبيعة النبوة والحاجة إليها، ومن جهة ماهية الوحي فيما يتعلق بمفهومه وأنواعه وإمكانه، ومن جهة عقيدة ختم النبوة.

أولاً: طبيعة النبوة:

1- تعريف النبوة:

أ- لغة: يقال لفظ النبوة في اللغة على وجهين:

- أحدهما: أنها من "النّبأ"، فتكون النبوة بمعنى الإخبار، لأن "النّبأ" هو الخبر. ومنه أخذ معنى "النبيء"، لأنه أنبأ عن الله تعالى.

- الثاني: أنها مشتقة من "النَّبْوَة" أو"النَّبْو"، بمعنى الرفعة والعلو. ومنه دلّ على تفضيل النبي على سائر الناس برفع منزلته، فالنبي هو المعلّى الرفيع المنزلة.

ب- اصطلاحاً:

- النبّوة هي اصطفاء الله تعالى عبداً من عباده بالوحي إليه لتبليغ رسالته.

- النبّي عبد اصطفاه الله تعالى بالوحي إليه لتبليغ رسالته.

2- الفرق بين النبّوة والرسالة:

- الذي عليه جمهور العلماء أن هناك فرق بين النبي والرسول: فالنبي هو إنسان أُوحي إليه بشرع سواء أُمر بتبليغه للناس أم لم يُؤمر. والرسول هو إنسان أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه للناس. وبناء عليه فكل رسول نبيّ، لأنه أوحي إليه بشرع. وليس كل نبي رسولا، لأنه قد يوُحى إليه ولا يأمر بالتبليغ. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[الحج:52].

- ومنهم من قال أنه لا فرق بين النبي والرسول، بل هو من قبيل الترادف؛ فيطلق النبي على الإنسان الذي اصطفاه الله عزّ وجلّ لإنذار قومه. وأما الرسول فيطلق عليه من جهة تكليفه بمهمة

التبليغ والإرسال، وممن ذهب هذا المذهب القاضي عياض من المالكية، والطبري، والقاضي عبد الجبار من المعتزلة.

3- وظيفة الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم:

إن من أبرز الوظائف الأساسية للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأهمها التي نصت عليها نصوص القرآن الكريم هي: **تبليغ شريعة الله تعالى** لخلق الله تعالى على الوجه الذي أمرهم المولى عزّ وجلّ به. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّغُوتَ﴾ [النحل:35]. وقال أيضاً: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[العنكبوت:18]. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:48]. وقد جاء هذا التبليغ بمعانٍ منها:

– قد يكون التبليغ خاصاً لقوم مخصوصين كما هو حال الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء:105-107]، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ﴾[الصف:6]. وقد يكون التبليغ عاماً للناس أجمعين كما هو في حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:33].

– الدعوة والتبيين والهدى، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:125]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:4].

– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف:157].

– الوعد والوعيد، التبشير والإنذار، قال تعالى:﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا﴾ [سبأ:28].

– وينبغي الإشارة في هذا المقام إلى أن وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام هذه يتحملها أتباعهم المؤمنون من بعدهم، وبهذا خاطب الله تعالى الأمة بما خاطب به نبيّها فقال عزّ وجلّ: ((وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ))[آل عمران:104]، ((كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ))[آل عمران:110].

4– صفات الرسل صلّى الله تعالى عليهم وسلم:

والمقصود بصفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ما يشمل الصفات الضرورية التي يجب أن تتوفر فيهم. وجملة ما يجب للأنبياء عليهم الصلاة والسلام الصفات الآتية:

أ– الأمانة: وتعني حفظ الله تعالى لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام في بواطنهم وظواهرهم من التلبس بما هو منهي عنه. وهذا يعني أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من كتم شيء مما أنزل الله تعالى إليهم. قال تعالى:((إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ))[الشعراء:125].

ب– الصدق: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى، لأن الله تعالى أيدهم بالمعجزات، فلو لم يكونوا صادقين للزم عدم تأييد الله عزّ وجلّ لهم بالمعجزات، فهم ذروة البشر الذين اصطفاهم المولى عزّ وجل لتبليغ رسالاته فلا يعقل أن يصدر منهم الكذب. ((وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ))[الحاقة:44-47]، ((وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ))[النجم:3-4]، ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ))[النساء:170].

ج– الفطانة وكمال العقل وقوة الحجة: والفطانة هي التيقظ والتفطن لإلزام الخصوم ونقض دعاويهم الباطلة، فلا يمكن أن يكون الرسول ناقصاً في عقله وضبطه وقوة حجته، لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام جاؤوا لحمل رسالة الله تعالى ودينه ولقيادة الأمم وتربيتهم و للمنافحة عن دين الله تعالى ورسالته ولإقامة الحجج وإبطال شبه المخالفين، فكان من الضروري أن يتحقق فيهم من الاستعداد ما يُؤهِّلهم لذلك. قال تعالى :((وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ))[الأنعام:83]،

«فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ»[الأنبياء:58-66].

د- العصمة عن الوقوع في الذنوب: الذنوب تختلف في الخطورة. فأما أخطرها وهو الكفر، فهم معصومون منه قبل البعثة وبعدها بالإجماع، وأما تعمّد ارتكاب الكبائر فهو أيضاً محال عليهم قبل النبوة وبعدها بالإجماع. وأما الصغائر التي لا تُخِّل بالمروءة ولا تستلزم خِسة والتي لم يرد على فعلها وعيد شديد، فهي محل خلاف وبحث عند العلماء، وإن كان جمهور أهل السنة والجماعة يميلون إلى القول بامتناع الصغائر في حق الأنبياء خصوصاً بعد البعثة.

د- سلامتهم من المنفرات: كون الرسل الذين يختارهم الله تعالى لتبليغ رسالته ملزمون بمخالطة الناس والاجتماع بهم لدعوتهم وهدايتهم، فإن هذا يستلزم أن يكونوا سليمين من النقائص الخَلقية والعيوب والأمراض المنفّرة كالبرص والجذام والروائح الكريهة حتى لا ينفر الناس منهم.

** ويمكن القول عموماً أن الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين اختارهم الله تعالى وأرسلهم إلى الناس متصفون بكل صفات الكمال التي تجعلهم أهلاً لذلك التكريم والاختيار وأهلاً لهذه المهمة الشاقة التي نيطت بهم. وأنهم تميزوا عن باقي البشر بالأخلاق العالية، ففضلا عن الصفات الضرورية السابقة نجد كذلك تميّزهم بالعفاف والطهر والحلم والصبر واللين والتواضع وغيرها من الصفات الكثيرة التي ذكرها القرآن الكريم.

5- الصفات البشرية للرسل عليهم الصلاة والسلام:

لما كانت رسالة الله تعالى موجهة لبني البشر فقد اختار سبحانه لها رسلاً من جنس البشر حتى تقع الملاءمة والانسجام بينهم، إذ لو اختار لها من غير جنس البشر لحصل التنافر ولما تحقق الغرض من إرسال الرسل وهو الدعوة والقدوة.

وقد أكد القرآن الكريم على الصفات البشرية للرسل عليهم الصلاة والسلام لحماية عقيدة التوحيد؛ بمعنى حتى يبقى الخالق خالقاً والمخلوق مخلوقاً. هذا المخلوق الذي مهما اتصف وتميّز عن غيره فلن يصل إلى مرتبة خالقه، فهو عبد له عزّ وجلّ. ويمكن أن نتلمس التأكيد على هذا الأمر في القرآن الكريم فيما يأتي:

- تأكيد القرآن الكريم على أن هؤلاء الصفوة هم بشر من خلق الله تعالى. قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:11]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[فصلت:6].

- التأكيد على أنهم عباد الله تعالى. قال عزّ وجلّ: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾[مريم:30]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[الإسراء:1].

- التأكيد على أنهم لا يملكون من أمر الله تعالى شيئاً. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[المائدة:17].

- ذكر عوارضهم البشرية كالمرض والجوع والتعب والأكل والشرب. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[الشعراء:78-81]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[الحجر:97].

6- الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر والعبقرية:

أ- المعجزة:

- المعجزة في اللغة: اسم فاعل من العجز، وهو ضد القدرة. ومعجزة النبي ما أعجز به الخصم عند التحدي.

- أما اصطلاحاً: فهي:"أمر خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد النبي يفوق طاقة البشر ويخرق قوانين الطبيعة وخواص المادة يتحدى النبي به قومه فلا يقدر أحد على معارضته".

- الغرض من المعجزة: تحدي المنكرين وإعجاز المخالفين والمعاندين وإثبات صدق نبوة الأنبياء وأنهم رسل من عند الله تعالى.

ب- الكرامة:

هي أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد الوليّ غير مقرون بدعوى النبوة ولا مقدمة لها.

والوليّ هو العارف بالله تعالى، ملتزم بمتابعة نبيّه، ظاهر الصلاح، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل، مواظب للطاعات مجتنب للمعاصي والسيّئات، معرض عن الانهماك في الشهوات. وظهور الكرامات على يده إكرام له من ربّه، وإشارة لقبوله عنده.

- الغرض من الكرامة: بيان قدرة الله تعالى، تكريم الولي، زيادة الإيمان للولي الذي ظهرت على يديه، وهي من البشرى له.

= الفرق بين المعجزة والكرامة:

-إن أهم فرق بينهما:أن المعجزة مقرونة بدعوى النبّوة بينما الكرامة غير مقرونة بدعوى النبوة.

- الوليّ إنما حصلت له الكرامة باتباعه للنبي والاستقامة على شرعه، فكل كرامة في حقه هي دليل على صدق النبيّ. فلولا اتباعه للنبيّ ما حصلت له الكرامة.

- الكرامة معتادة في الصالحين ينالها الوليّ بفعله كتقواه وعبادته ودعائه، والأصل فيها الإخفاء والكتمان. وهذا يخالف المعجزة التي إظهارها واجب ليتم بها المقصود من تبليغ الرسالة، وتقام بها حجة الله تعالى على خلقه.

ج- السحر:

- السحر في اللغة: ما خفي ولَطُف سببه.

– **اصطلاحاً**: "السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفي سببه ويُتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع".

= الفرق بين المعجزة والسحر:

– السحر يحدث بسبب قوانين يمكن أن يتعلمها الساحر، ذلك أنه عبارة عن قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد أن يتوصل إليه.

– السحر عبارة عن أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته، فتجده ينصرف أو يميل أو يتخيل أو يُجن..إلخ.

– وأصل مفهوم السحر هو صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره.

– وهذه الأمور الثلاثة التي يختص بها السحر والتي يستخدمها الساحر وهو شر الناس عملاً وعلماً، والذي لا يأتي منه الخير أبداً، تخالف تماماً وعلى الإطلاق مفهوم المعجزة التي تجري على يد النبيّ وهو أشرف خلق الله تعالى، وتخالف أيضا الكرامة التي تظهر على يد الوليّ، فإن السحر لا يظهر إلا على يد الفاسق.

د– العبقرية:

من المعاني الأكثر شيوعاً "للعبقرية" أن العبقرية: تعني تمتع المرء بقدر من الذكاء العالي جداً يساعده على الإبداع وتحقيق منجزات باهرة في حقل من الحقول وفي مجالات لم تستكشف من قبل. وقد ذهب البعض إلى القول بأن النبوّة هي عبقرية، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عبقري بهذا الاعتبار لمفهوم العبقرية.

= إن مصدر العبقرية هو الذكاء البشري مهما كانت صفة هذا الذكاء الذي يبقى ظاهراً بأشياء ملموسة، والذي يتمثل في جملة الأنساق والأنظمة الفكرية في مختلف المجالات، والتي تبقى عرضة للنقد والاعتراض. بينما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مصدر علمهم وعملهم والنظام الذي جاؤوا به إنما هو وحي الله تعالى وتعاليمهم معصومة من الخطأ والزلل.

** **نتيجة:**

– النبوّة ليست كرامة ولا كهانة ولا سحراً ولا عبقرية ولا فلسفة، النبوّة منحة إلهية واصطفاء خالص من الله تعالى يختص به من يشاء من عباده.

– النبوّة إلزامية غير كسبية، فلا ينالها الإنسان بالجهد الفكري التأملي أو الترقي الروحي والأخلاقي، ولا عبرة في حصولها للقيم الدنيوية والاعتبارات المادية، فالله تعالى اختص بالنبوّة من شاء في الوقت الذي شاء وقفاً لحكمته وعلمه ورحمته. قال تعالى :((ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ))[الأنعام:124]، ((ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ))[الحج:75].

ثانياً: وجه الحاجة إلى النبوّة:

تنبع حاجة الإنسان إلى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام من طبيعته التي فطر عليها. وتظهر الحاجة إلى النبوّة في الآتي:

أ– الهداية إلى الله تعالى: ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن ينفرد بإدراك الاعتقاد الصحيح بالخالق جلّ شأنه. فالغرض الأساسي من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام منذ بزوغ الرسالة الإلهية على لسان نوح عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة وأزكى التسليم، هو الهداية إلى الله تعالى. قال تعالى: ((أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ)) [الأعراف:59]. وعلى هذا تتابع جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ب– تلبية الفطرة الإنسانية بالدين الحق: الإيمان بالله تعالى فطرة إنسانية خالدة، وقد جاءت الرسالات السماوية لإسعاف الإنسان بالدين الصحيح، عقيدة وشريعة وعبادة ليسمو به فيحقق إنسانيته.

ج– الهداية إلى أمر الآخرة: من حيث أن الرسالات السماوية جاءت لتقيم الأدلة على اليوم الآخر، لما في الإيمان به من حض للإنسان على الاستقامة في سلوكه وحمله على التحلي بالأمانة والقيام بالمسؤولية تجاه ربه ونفسه ومجتمعه. قال تعالى: ((وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ))[الأنبياء:47].

د- الهداية إلى المعاملات الصالحة: حيث تتجلى حاجة البشرية الملحة إلى تنظيم مناسب ومحكم لمعاملاتها تترسم به الطريق السوي، وتدفع به المظالم والخصومات والنزاعات، وتحفظ الناس حقوقهم لئلا يطغى بعضهم على بعض. وقد جاء الرسالات السماوية لهذه الحاجة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:25].

هـ- الحاجة إلى الإنسان الكامل القدوة: فالناس أحوج ما يكونون إلى القدوة المثال الصالح الذي يجالسونه ويعاينون فيه الصورة الواقعية للدين. فالحاجة إلى الرسالة هي حاجة إلى الرسول القدوة. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:3].

و- تحقيق عدل الله تعالى وحكمته ورحمته: إن بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وإنزال الشرائع معهم هي منّة من الله تعالى ورحمة على سبيل اللطف بالبشر والفضل عليهم. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء:15].

ماهية الوحي

1- تعريف الوحي لغة واصطلاحاً:

أ- لغة:

يدل لفظ "الوحي" على الإعلام الخفي، والكلام الخفي، والإيماء والإشارة السريعة، وإلقاء المعنى في النفس، والإلهام. وقيّد بعض المعرفين لفظ الوحي لغة بقيدي: الخفاء والسرعة، فقالوا: الوحي هو: الإعلام الخفي السريع.

وقد جاء في القرآن الكريم لفظ الوحي باستعمالات لغوية متعددة منها الآتي:

- **الإلهام الغريزي للحيوان:** قال تعالى: ((وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ))[النحل:67].
- **الإلهام للإنسان:** قال تعالى: ((وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ))[القصص:7].
- **الإشارة السريعة بأمر ما:** مثل ما جاء في قصة زكرياء عليه الصلاة والسلام حين أشار إلى قومه بالتسبيح: ((فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا)) [مريم:11].
- **الوسوسة الشيطانية:** قال تعالى: ((وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ))[الأنعام:121].
- **ما يلقيه الله تعالى إلى ملائكته من أمر ليفعلوه:** قال تعالى: ((إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ)) [الأنفال:12].

ب- اصطلاحاً:

"إعلام الله تعالى رسولاً من رسله أو نبيّاً من أنبيائه ما يشاء من كلام أو معنى، بطريقة تفيد النبيّ أو الرسول العلم اليقيني القاطع بما أعلمه الله تعالى به".

ومن خلال هذا التعريف الاصطلاحي للوحي نرى أن مفهوم الوحي يستجمع من الناحية الشرعية عناصر ذات أهمية بالغة وهي:

- أنه إعلام من الله تعالى المحيط بكل شيء علماً. قال تعالى: ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ)) [الشورى:52].
- أن النبي أو الرسول يتلقى هذا العلم الإلهي وهو مستجمع كامل شعوره الفكري والوجداني وكل ما يلقى إليه من علم، دون أن يكون لإرادته واختياره تدخل في مضمون ما يلقى إليه، أو في لفظه إن كان يلقى إليه لفظاً. قال تعالى:((وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ))[النجم:3-4].

– أن ما يلقى بالوحي من كلام أو معنى يقع في نفس الرسول أو النبيّ موقع العلم اليقيني القاطع بصحة التلقي عن الله تعالى، بحيث لا يعتريه في ذلك أدنى تردد أو شك. قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾[الكهف:27].

– أن الوحي هو ناموس إلهي به يتلقى جميع الرسل والأنبياء ما يلقى إليهم من أمر، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾[النساء:163].

2– أنواع الوحي:

قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾[الشورى:52]. ويستفاد من هذه الآية الكريمة أن الوحي للرسل والأنبياء عليهم وعلى نبيّنا أفضل الصلاة وأزكى السلام على ثلاثة طرق أو أنواع هي كالآتي:

أ– الوحي الذي يكون بلا كلام مسموع: وذلك يكون بإلقاء وقذف المعنى في قلب النبي أو الرسول بوضوح يقظة أو مناماً بحيث لا يختلط مع غيره من واردات ذهنية وخواطر، يفيد النبيّ علماً قطعياً ضرورياً بأن ذلك من عند الله تعالى. وهو يشمل ما كان مثل: صلصلة الجرس، والنفث في الروع، والإلهام، الرؤيا المنامية. وهذا النوع هو ما أشار إليه في الآية الكريمة "إِلَّا وَحۡيًا".

ب– ما كان بسماع الكلام الإلهي ولكن من غير رؤية للمتكلم: وذلك بمخاطبة المولى تبارك وتعالى النبي من وراء حجاب، كما حصل لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأعراف:143-144]. وهذا النوع هو ما عنته الآية الكريمة "أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ". والقرآن الكريم لم يبيّن لنا كيف تكلم الله تعالى، وكيف سمع موسى عليه الصلاة

والسلام هذا الكلام، ولكن ما الفائدة العملية لإخبارنا بذلك ؟ يمكن القول لو كان في ذلك فائدة عملية لنا لما تأخر القرآن الكريم عن إخبارنا عن ذلك.

ج– ما يكون بواسطة إرسال ملك تُرى صورته ويسمع كلامه: والمقصود هنا الملك الموكل بالوحي كجبريل عليه السلام، فيوحي إلى النبيّ عليه الصلاة والسلام ما أمره الله تعالى أن يوحي إليه. وهو ما أشار إليه قوله تعالى: "أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ".

3– تلقي الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي:

أ– بدء الوحي:

1– أول ما بدئ به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي **الرؤيا الصادقة.** روى الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه في "كتاب بدء الوحي" عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: **"**أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح**"**، أي جاءت ظاهرة واضحة لاشك فيها. وقد ذهب ابن حجر رحمه الله تعالى إلى أن بدء ذلك ليكون تمهيداً وتوطئة لليقظة.

2– ثم جاءه جبريل عليه السلام بغتة على غير ميعاد سابق، وذلك في غار حراء، إذ كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يذهب إليه للتعبد حينما حُبب إليه الخلاء، فكان يتعبد الليالي ذوات العدد. وأخذ يضمه إليه بقوة ثلاث مرات ويقول له: إقرأ..إلخ. وهذا اللقاء المفاجئ كان له أثر كبير في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ رجع إلى أهله وهو يرجف فؤاده من الخوف ويقول: "زملوني زملوني".

3– ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة قيل إنها قرابة ستة أشهر. والحكمة من فتور الوحي وتأخره عنه صلى الله عليه وسلم أن يحصل له التشوق إلى العود، وليذهب عنه ما وجده من الروع. وأيضاً ليشعر أن ما حدث له لم يكن نتيجة لرياضة روحية، وإنما كان ذلك اصطفاء واختياراً من قبل خالقه عزّ وجلّ. وقد لاقى صلى الله عليه وسلم شدة كبيرة من فتور الوحي عنه.

4– ثم جاءه الوحي بعد ذلك وهو يسير في شعاب مكة. روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال – وهو يحدث عن فترة الوحي– فقال في حديثه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"**بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء

والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾[المدثر:1-5].

5- ثم تتابع الوحي بعد ذلك.

ب- كيفية نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وقد كان ينزل الوحي على النبيّ صلى الله عليه وسلم على كيفيات مختلفة كالآتي:

1- النفث والإلقاء في القلب: ما كان يلقيه جبريل عليه السلام في روع وقلب النبي صلى الله عليه وسلم من غير أن يراه، كما قال صلى الله عليه وسلم: **"إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب".**

2- صلصلة الجرس: "الصلصلة" هي: وقوع الحديد بعضه على بعضٍ، ثم أطلق على الطنين. وكانت هذه الكيفية في تلقي الوحي من أشدّ الكيفيات في نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**"أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما يقول".**

3- أن يتمثّل له الملك رجلاً فيكلمه: حتى يعي عنه ما يقول. ففي تتمة الحديث الذي ذكرنا أعلاه آنفاً: **"وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول"** . كما في حديث جبريل عليه السلام الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

4- تارة كان الرسول صلى الله عليه وسلم يراه على صورته الحقيقية: حيث رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في بدء الدعوة على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها يسدّ الأفق بخلقه الهائل، والمرة الثانية التي رآه فيها على صورته كانت ليلة الإسراء والمعراج. عن ابن مسعود رضي الله عنه: **"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح".**

5- هذا وقد جاء في السنة وصف لرسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان ينزل عليه الوحي:

– ففي البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها:"ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً".

– وفي البخاري أيضاً: قال زيد بن ثابت: "أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترضّ فخذي".

4– شبه المنكرين والجاحدين للوحي:

حرص المنكرون والجاحدون للوحي قديماً وحديثاً أن يفسروا "الوحي" بنظريات غامضة ومنحرفة تهدف إلى إنكار رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حيث فسروا ظاهرة الوحي بـ"الحديث الداخلي والإلهام النفسي" مرة، وبـ"الإشراق الروحي" مرة أخرى. وقد أعماهم الحقد فتجرؤوا على القول بأن الوحي ضرب من "الجنون والصرع". والهدف من وراء ذلك إخراج المسلمين عن دينهم أو على الأقل تشكيكهم في حقيقة إيمانهم، والتي هي حقيقة مبنية على الوحي أصلاً.

وفي الواقع فإن هذه المزاعم التي ذهبوا إليها لا تقوم على أي برهان علمي بل هي مجرد مزاعم متهافتة لا أساس لها من الصحة؛ ذلك أن ما نقلته لنا كتب السير والحديث عن الوحي يكذّب كل ما زعموه. وهاهنا يمكننا أن نطرح بعض الأسئلة التي تتعلق بجملة من الوقائع التاريخية التي أحاطت بالوحي، وسنرى أن الإجابة عنها تحدد لنا ماهية الوحي كحقيقة إلهية من جهة، وتهدم كل ما حاولوا أن يلصقوه به من جهة أخرى.

1– الأسئلة:

أ– لماذا رأى الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عياناً لأول مرة، وقد كان بالإمكان أن يكون الوحي من وراء حجاب ؟ وما معنى ضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات ؟

ب– لماذا ألقى الله تعالى في قلب النبي صلى الله عليه وسلم الرعب منه والحيرة في فهم حقيقته، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وحفظه له تقضي أن يلقي السكينة في قلبه ويربط على فؤاده فلا يخاف ولا يرتعد ؟

ج– لماذا خشي على نفسه أن يكون هذا الذي ساوره طائفاً من الشيطان ولم يستيقن من أول الأمر أنه ملك أمين من عند الله تعالى ؟

د– لماذا انفصل الوحي عنه بعد ذلك مدة طويلة، وجزع النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبب ذلك جزعاً عظيماً حتى إنه كان يحاول،كما روى الإمام البخاري، أن يتردى من شواهق الجبال ؟

هـ– ثم ما هي دلالات استمرار الوحي بعد ذلك، والتي يمكن لها أن تحدد لنا أن الوحي حقيقة إلهية ؟

2- الجواب عن الأسئلة:

أ– حتى يتبيّن له أن الوحي ليس أمراً ذاتياً داخلياً مرده إلى حديث النفس، وإنما هو استقبال وتلقٍ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وما ضمّ الملك إياه وإرساله ثلاث مرات، قائلاً في كل مرة "إقرأ"، إلا تأكيداً لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور منه أن الأمر يتعلق بالخيال.

ب– دَاخَله الخوف صلى الله عليه وسلم لكي يتضح لكل من كان له عقل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن متشوقاً للرسالة والنبوّة، وأن الوحي طرأ عليه طروءاً وفوجئ به دون سابق توقع. ثم إن حالات "الإلهام الداخلي" أو "حديث النفس" أو "الإشراق الروحي" أو "التأملات العلوية" لا تستدعي إطلاقاً الخوف والرعب، بل العكس من ذلك هو الصحيح.

ج– تظهر صور المفاجأة المخيفة أيضاً لديه صلى الله عليه وسلم، في توهمه بأن هذا الذي رآه وغطه وكلمه في الغار قد يكون طائفاً من الجن. وهذا بيان بأن شيئاً لم يطبخ في ذهن النبيّ صلى الله عليه وسلم مسبقاً سواء من أركان العقيدة أو التشريع الإسلامي الذي جاء بهما، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يتصور الدعوة إلى ذلك سلفاً.

– إلهام الله تعالى السيدة خديجة رضي الله عنها بالذهاب به صلى الله عليه وسلم إلى "ورقة بن نوفل" الشيخ العالم بشؤون النصرانية واليهودية، هو تأكيد آخر أن الذي فوجئ به صلى الله عليه وسلم إنما هو الوحي الإلهي الذي قد نزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله.

د– أما انقطاع الوحي عنه صلى الله عليه وسلم وبقاؤه ستة أشهر أو أكثر وهو على تلك الوضعية، فهو من أبلغ الردود على أولئك المشككين في الوحي النبوي من أنه عبارة عن إشراق نفسي منبعث لديه من طول التأمل والتفكير وأنه أمر داخلي منبعث من أعماق ذاته. إن الوحي حقيقة إلهية دون أدنى ريب أو شك.

– لقد راحت نفسه تحدثه كلما وصل إلى ذروة الجبل أن يلقي بنفسه منها إلى أن رأى مرة أخرى الملك الذي رآه في حراء، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول: يا محمد إنك رسول الله إلى الناس، فعاد مرة أخرى وقد استبد به الخوف والرعب إلى البيت حيث نزل عليه صلى الله عليه وسلم الوحي:((يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ))[المدثر:1-5].

هـ– ثم إن استمرار الوحي بعد ذلك يؤكد على أنه حقيقة إلهية لا كما أراد المشككون ظاهرة نفسية محضة. ونستطيع أن نجمل هذه الدلالات في الآتي:

– التمييز الواضح بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

– كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يسأل عن بعض الأمور فلا يجيب عليها.

– كون النبيّ صلى الله عليه وسلم أمياً. قال تعالى: ((وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ))[العنكبوت:48].

– صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم مع قومه أربعين سنة، يقتضي أن يكون صادقاً مع نفسه. قال تعالى: ((فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ))[يونس:94].

وهكذا نصل من خلال ما تقدم إلى أن كل ما جاء في هذه المحاضرة من محاولة إبراز ماهية الوحي يهدم أي محاولة للتشكيك فيه بأي صورة من الصور، ويؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الوحي حقيقة إلهية، وبالتالي فهو يشكل مصدرا أساسيا للمعرفة عموماً وللمعرفة العقائدية خصوصاً عند المسلمين.

عقيدة ختم النبوة

1- مفهوم الختم في اللغة والاصطلاح:

أ- لغة:

تشير المصادر اللغوية في بيان معنى الختم إلى أن مادة "خ ت م" لها عدة معانٍ يمكن أن نوجزها في ثلاثة رئيسية كالآتي:

- **الطبع**: معنى "خَتَمَ" و"طَبَع" واحد في اللغة.

- **التغطية**: أي تغطية الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء. وهو معنى "ختم على قلبه"، أي جعله لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيئاً.

- **آخر الشيء ونهايته**: يقال ختم الشيء يختمه ختماً، بلغ آخره، وخاتم كل شيء وخاتمته: عاقبته وآخره. وخاتم القوم وختامهم: آخرهم. قال تعالى :((مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ))[الأحزاب:40].

= إذاً هناك تقارب بين هذه المعاني التي يُراد بها فعل "خَتَمَ"، وهي الطبع، وتغطية الشيء، وآخر الشيء وعاقبته. وهي جميعها تدل على الانتهاء من الشيء الذي يُعبر عنه بهذا الفعل.

= وعلى هذا فالذي يقتضيه سياق الآية الكريمة في مقتضى كلام العرب في قوله تعالى: ((وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ)) هو: الطبع، والإتمام، والوصول إلى الانتهاء.

ب- اصطلاحاً: انتهاء إنباء الله عزّ وجلّ الناس، وانقطاع وحي الله تعالى.

2- أدلة ختم النبوة في القرآن الكريم:

أ- تصريح القرآن الكريم بعقيدة ختم النبوة:

وذلك في قوله تعالى :((مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ))[الأحزاب:40].

- قرأ عاصم "وخَاتَم" بفتح التاء، على معنى أن النبي صلى الله عليه وسلم خُتِمَ به النبيّون، فلا نبيّ بعده، فمعناه آخر النبيين.

– وقرأ الباقون "وخَاتِم" بكسر التاء، على معنى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يختم باب النبوة، فهو صلى الله عليه وسلم قد ختم الأنبياء بمجيئه، ولا نبي بعده. [صار كالخاتم لهم يختمون به ويتزينون بكونه منه].

– قال الطبري: "ولكنه رسول الله وخاتم النبيين الذي ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده إلى يوم القيامة".

– وذهب الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى أن هذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى.

– وقال الزمخشري: "فإن قلت كيف كان آخر الأنبياء وعيسى عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر الزمان ؟ قلت: معنى آخر الأنبياء أنه لا ينبأ أحد بعده، وعيسى ممن نبئ قبله، وحين ينزل ينزل كاملاً على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم،مصلياً إلى قبلته، فهو بعض أمته".

ب– عموم الرسالة المحمدية للنبي صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:158]. يبّن الحافظ ابن كثير دلالة هذه الآية الكريمة على ختم النبوة من خلال عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول: "أن هذا خطاب للأحمر وللأسود وللعربي والعجمي، أي جميعكم. وهذا من شرفه وعظمته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة".

ففي هذه الآية الكريمة بيان من الحق عزّ وجلّ لعموم رسالة نبيّنا صلى الله عليه وسلم دون استثناء لجنس أو نوع مما يدل دلالة قاطعة على عالمية رسالة الإسلام التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم.

ج– إخبار القرآن الكريم بكمال الدين:

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[المائدة:3].إن تصريح القرآن الكريم بكمال الدين يعني ويستلزم ضرورة ختم النبوة برسولنا صلى الله عليه وسلم.

د– تعهد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[الحجر:9].

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى:إن الأمم قبل هذه الأمة كانت إذا بدلوا وغيروا بعث الله تعالى نبيّاً يبيّن لهم ويأمرهم وينهاهم، ولم يكن بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبيّ، وقد ضمن الله تعالى أن يحفظ ما أنزله من الذكر.

3- أدلة السنة النبوية على ختم النبوة:

أ- إخباره صلى الله عليه وسلم عن نفسه أنه نبيّ صراحة وأنه خاتم النبيين:

- قال صلى الله عليه وسلم:"إن مَثَلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة ؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين". [صحيح البخاري، كتاب المناقب].

- حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "(...) أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يُمحى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب". ومعنى "العاقب" الذي يعقب كل الأنبياء ولا يعقبه نبي، فهو دلالة على ختم النبوة.

ب- تصريحه صلى الله عليه وسلم بانقطاع النبوة وأنه لا نبي بعده:

- روى الترمذي في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبيّ. قال فشق ذلك على الناس، فقال: لكن المبشرات. قالوا يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال: رؤيا المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة".

- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا وما المبشرات ؟ قال: الرؤيا الصالحة".

ج- إخباره صلى الله عليه وسلم بأنه بعث بين يدي الساعة:

عن أنس رضي الله عنه،عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:"بُعثت أنا والساعة كهاتين".

4- دلالة العقل على ختم النبوة:

يقول أبو الأعلى المودودي رحمه الله تعالى:" لا يرسل نبي بعد نبيّ إلا لأحد الأسباب الثلاثة الآتية:

أ- أن يكون تعليم النبيّ المتقدم قد انمحى وظهرت الحاجة إلى عرضه على الناس مرة أخرى.

ب- أن يكون تعليم النبي المتقدم غير كامل، فهو بحاجة إلى إتمامه.

ج- أن يكون تعليم النبي المتقدم منحصراً في أمة خاصة، وتكون أمة أخرى أو سائر الأمم بحاجة إلى نبيّ مرسل مثله.

- والحال أنه قد انعدم كل سبب من هذه الأسباب الثلاثة اليوم، فدلّ ذلك على ختم النبوة.

ويرى الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى أن "ختم النبوة هو تكريم للإنسانية باعتبارها بلغت الرشد، وأنها انتهت إلى الدين الكامل الذي يضع الأسس والأصول. وهي تغلق الباب على المتنبئين الكذابين، وتمنع فوضى الدعاوى الكاذبة المفترية على الله تعالى".

5- موقف بعض الطوائف المعاصرة من النبوة:

لقد تكونت داخل الأمة الإسلامية فرقاً نزعت عنها رداء الإسلام وفرّعت لنفسها منه ديناً جديداً، أو قل تحللت منه ثم لم ترتبط بعد ذلك بأي دين. نذكر منها فرقتين هما "البابية" التي تسمى أيضاً بـ"البهائية"، و"القاديانية". وهاتان الفرقتان نموذجاً لجماعات تلاقت على التحلل من الإسلام بشكل أو بآخر وأظهرت القول باستمرار النبوة والرسالة.

أ- البابية والبهائية:

نسبة إلى الميرزا علي محمد الشيرازي (1819-1850م). ولد في مدينة شيراز بإيران، وسمّى نفسه بـ"الباب"، إشارة إلى أنه الباب الوحيد الذي يمكن أن ينفذ منه الطالب ليصل إلى حضرة الله تعالى. وكان هذا الرجل في بادئ أمره من المسلمين المتعبدين وكان يتمتع بأخلاق فاضلة، ولكنه ما لبث أن اشتغل بتأسيس دين جديد مخالف للإسلام، وراح يستنبط بالتأويلات الباطلة الباطنية من كتاب الله تعالى، فانضم إليه رجال كانوا من أتباعه وانتشر له اسم في بلاد فارس، وقامت معارك بين جماعته ودولة إيران واستمرت المعارك مدة من الزمن دون أن يكون لها من تأثير في القضاء عليهم.

- وخلاصة عقيدتهم في النبوة هي: أن النبوة والوحي مستمران باقيان وليس "الباب" إلا مظهراً لاستمرار الوحي والرسالة، فهو عندهم من أكبر الأنبياء الذين يؤكدون أن زمن الوحي مستمر ولم يختم بعد.

– ولما ظهر المدعو "بهاء الله" (1817م-1892م) الذي نادى على نفسه خليفة للباب نُسبت هذه الطائفة إليه فسميت بـ"البهائية"، وأعلن بأن دين الله تعالى لم يتم ولم يختم إلا بظهور البهاء الذي هو أحد رسل الله في اعتقادهم.

ب– القاديانية:

نسبة إلى غلام أحمد القادياني (1839م-1908م). ولد بقاديان من بلاد الهند، وقام يعلن بأن الله تعالى إنما وعد بظهور مثيل عيسى في الأرض لا بظهور عيسى عليه الصلاة والسلام نفسه، وبأنه ذلك المثيل الذي وعد الله تعالى بظهوره فهو المسيح الموعود.

– ثم راح يزعم أنه نبي ورسول مؤيد من الله تعالى، وصاغ لنفسه وحياً كالقرآن، وابتنى لنفسه مسجداً في بلدة "قاديان" وسماه المسجد الأقصى. وسمّى بلدته مكة المسيح، وسمى أزواجه أمهات المؤمنين، وراح يجمع من حوله الشيعة والأتباع بكل وسيلة. ولم يزل على حاله تلك يدّعي النبوة، ويكذب على الله تعالى وأنبيائه، ويضع نفسه للناس موضع عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، إلى أن رماه قضاء الله تعالى بمرض "الكوليرا" ومات في بيت الخلاء ساقطاً على وجهه، فكان موته عبرة لأولي الأبصار.

– فالنبوة عند القاديانيين لم تختم بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكلمة "خاتم" عندهم تعني "أفضل".